نوبل للآداب
2019

بيتر هاندكه

دون جوان
يحكي عن نفسه

ترجمة: سمير جريس

مكتبة

رواية

بيتر هاندكه

دون جوان
يحكي عن نفسه

رواية

t.me/t_pdf
مكتبة

مقدّمة

«دون جوان شخصٌ آخر»

بيتر هاندكه (6/12/1942) كاتبٌ جريء ومستفزّ، ومثير للجدل، بدأ حياته الأدبية بواقعة أضحت أسطورة في عالم الأدب. كان الكاتب النمساوي في الثالثة والعشرين من عمره عندما تجرّأ وحضر في عام 1966 اجتماعاً لـ«جماعة 47» الأدبيّة المشهورة. أطلّ هاندكه على أعضاء الجماعة الألمانية بهيئةٍ فوضوية وشعرٍ طويل وصل إلى الكتفين، ثم هاجم الحاضرين واتّهمهم بـ«العنّة اللغوية»، و«العجز عن الوصف». وفي العام نفسه رسّخ سمعته كاتباً شابّاً مستفزّاً عندما مُثِّلت مسرحيته «سبّ الجمهور» على خشبة مسرح فرانكفورت، وفيها قلب هاندكه اللعبة المسرحية، فغدا الجمهورُ محورَ المسرحية، بدلاً من أن يكون متفرّجاً سلبيّاً على ما يحدث. لاقت أعمال هاندكه المتمردة في السنوات اللاحقة نجاحاً كبيراً وسط أجواء الحركة الطلابية المتمرّدة على المجتمع وسلطة الآباء وسطوة العادات والتقاليد. ولكن، خلافاً لمعظم أدباء «جماعة 47» الأسطورية، مثل هاينريش بُل، وغونتر غراس، وأوفه يونسون، ظلَّ هاندكه، على الأقل حتى سنوات التسعينيات، أديباً غير سياسيّ إلى حدٍّ كبير، وهو ما يعكسه العنوان الساخر لأحد أعماله: «أنا ساكن البرج العاجي».

في سنوات السبعينيات كتب هاندكه بعض أشهر أعماله التي تُرجمت أيضاً إلى العربية، مثل: «خوف حارس المرمى عند ضربة الجزاء» (ترجمها أحمد فاروق، وصدرت لدى دار الجمل في عام 2001، وقد أصدرت الدار نفسها مؤخراً ترجمة جديدة عن الفرنسية بتوقيع صالح الأشمر)، و«رسالة قصيرة للوداع الطويل» (ترجمة نيفين فائق، دار الجمل)، كما صدرت له رواية في ترجمتين بعنوانين مختلفين، الترجمة الأولى عن الفرنسية قام بها بسّام حجّار، وأعطاها عنوان «الشقاء العادي» (دار الفارابي، 1991)، والثانية أنجزَتها عن الألمانية مباشرة هبة شريف، بعنوان «محنة»، وراجعها وقدّمها الدكتور عبد الغفار مكّاوي (سلسلة «آفاق

الترجمة»، القاهرة، أكتوبر 2000). كما ترجم د. مصطفى ماهر مسرحية «كاسبر» (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، وترجمت ماري طوق (عن الفرنسية) رواية «المرأة العسراء» (دار الآداب).

في مقدمته الضافية لترجمة «محنة» يُبرز د. مكاوي سمةً مهمّة في كتابات هاندكه، وهي سمة «التعمّق في الباطن»، كما يشير إلى اهتمامه البالغ بالعلاقة بين اللغة والواقع، والبحث عن لغةٍ ملائمة لوصف الواقع الظاهري والباطني، وقد تجلّى هذا البحث في عنوان أحد أعماله، وهو «العالم الباطني للعالم الظاهري للعالم الباطني». ويشير مكاوي إلى تأثير كتابات فلاسفة الوجود على هاندكه، وخاصة مارتن هايدغر، وكذلك تأثير مواطنه الفيلسوف المنطقي والتحليلي لودفيغ فيتغنشتاين. ولعلّ الروايتين القصيرتين «خوف حارس المرمى عند ضربة الجزاء»، و«رسالة قصيرة للوداع الطويل» تبيّنان هذه النزعة الداخلية عند هاندكه، الذي استطاع «من خلال الموضوعية أو الشيئية المتناهية في الدقّة» أن يكون موغلاً «في الذاتية الصادقة المؤثرة إلى أبعد حدّ». ويقارن د. مكاوي هذه النزعة الباطنية عند هاندكه، والتأمل أثناء الكتابة في فعل الكتابة نفسه، بأعمال بعض الكتّاب المصريين، مثل المازني، ويحيى حقّي، وإدوار الخراط، وبدر الديب.

ويقول د. مكاوي إن هاندكه في بعض كتاباته (وأعتقد أن هذا ينطبق على «دون جوان») يواصل البحث «عن الذاتية الباطنية الأصيلة، عن طريق التسجيل الموضوعي الدقيق للأشياء والموجودات الطبيعية، ومن خلال الحساسية الجديدة بالطبيعة التي يسمّيها منبع الفن والكتابة الأزلية الأبدية».

هاندكه يهجر «البرج العاجي»

في تسعينيات القرن الماضي هجر هاندكه «برجه العاجي»، وألقى بنفسه في خضمّ بحر السياسة، وساند، بكلّ قوّته، الصربَ في حرب البلقان، كما عارض بشدّة تدخّل الناتو. وفي عام 1994 أصدر هاندكه كتاباً بعنوان: «العام الذي قضيته في خليج اللاأحد»، وفيه هاجم الناتو مجدّداً، معتبراً الصرب «ضحايا حرب البلقان» الحقيقيين، ثم سافر إلى بلغراد حيث قُلِّد وساماً قومياً زاد من حيرة قرّائه. وعندما واجهته عاصفة من الانتقادات كان متّسقاً مع ذاته وتمسَّك بموقفه، ثم أعلن انشقاقه عن الكنيسة الكاثوليكية، لموقفها المعادي للصرب، وأعاد في عام 1999 جائزة بوشنر –أعلى الأوسمة الأدبية في المنطقة الألمانية- احتجاجاً على موقف الغرب وألمانيا من الصرب.

عاش هاندكه بعد ذلك بعيداً عن الأضواء والإعلام إلى حدٍّ بعيد، يُصدر بين الحين والآخر كتاباً يكاد لا يلتفت إليه سوى النقاد المقتنعين بموهبته الأدبية الكبيرة. بدا عندئذٍ أن هاندكه بات شهاباً خبا وهجُه وبريقه. ومنذ ذلك الحين لم يعد أحد يتحدّث عن هاندكه إلا ويذكر موقفه المثير للجدل من الصرب، واقترابه من مجرم الحرب سلوبودان ميلوزفيتش. وهذا ما حدث في عام 2006 عندما قرّرت لجنة تحكيم «مستقلّة» تكريم هاندكه، ليكون أول الفائزين بجائزة الشاعر هاينريش هاينه، التي تبلغ قيمتها خمسين ألف يورو. بمجرّد أن أعلنت لجنة التحكيم قرارها، ثارت ثائرة مجلس مدينة دسلدورف، مانحة الجائزة، بسبب موقف الكاتب النمساوي من حرب البلقان، ورفضت منحه الجائزة. شعر هاندكه بالإهانة، وتخلّى طواعيةً عن الجائزة ونقودها. الموقف نفسه، تقريباً، تكرَّر في عام 2011، بعد أن اختارت لجنة تحكيم «مستقلّة» أخرى بيتر هاندكه ليكون أول الفائزين بجائزة «كانديد» (نسبة إلى بطل رواية فولتير) التي تمنحها مدينة «مندن»، التي لا تبعد عن دسلدورف كثيراً. غير أن الجهة المموّلة للجائزة اعترضت على اختيار هاندكه

بسبب موقفه من حرب البلقان، وأعلنت رفضها دفع قيمة الجائزة (15 ألف يورو). غضبت لجنة التحكيم وتشبّثت باختيارها، بل واقترحت أن يتولّى أعضاء اللجنة دفع قيمة الجائزة من حسابهم الشخصي، وهو ما رفضه هاندكه.

في ظل تلك المواقف السياسية المثيرة للجدل التي أعقبت حرب البلقان، صدرت روايته «دون جوان» (دار زوركامب، 2004)، وفيها استعاد هاندكه أسطورة أدبية طواها النسيان، حملت البعض على التساؤل: ماذا يدفع هاندكه إلى استعادة سيرة العاشق الماجن، في زمن الحروب والإرهاب وصدام الحضارات؟

«دون جوان» وفاوست

ثمة شخصيات أدبية تولد ولا تموت. وعبر السنين تشهد هذه الشخصيات ولادات متعدّدة، فتكتسي في كلّ مرّة شكلاً آخر وبعداً جديداً. ومن أبرز هذه النماذج شخصية «فاوست» مثلاً، التي تناولها عديدون قبل أن يخلّدها الشاعر الألماني غوته في ملحمته الشعرية. وبعد غوته شهد فاوست أكثر من ولادة، مثلاً على يد الروائي المشهور توماس مان في «دكتور فاوستوس»، وعلى يد بعض الأدباء العرب مثل توفيق الحكيم في «عهد الشيطان» و«نحو عالم أفضل».

ومن الشخصيات التي ما زال الأدباء والفنانون والسينمائيون يعودون إليها شخصية العاشق دون «خوان»، إذا اعتمدنا النطق الإسباني الأصلي، وليس النطق الفرنسي الذي شاع في البلاد العربية. ويعتبر الكاتب الإسباني تيرسو دي مولينا (1571-1648) أول من تناول هذه الشخصية المؤسطرة أدبياً. دون خوان في الرؤية الإسبانية رجل مذنب لا يؤمن بإله، العشق عنده هوس ومسّ، لعنة لا يبرأ منها؛ إنه يغرِّر بالنساء

ولا يتورّع حتى عن قتلهن من أجل متعته، إلى أن ينال في النهاية عقوبته.

هذه الأسطورة الأدبية انتقلت عبر إيطاليا إلى فرنسا، حيث تناولها موليير في مسرحية مُثِّلت عام 1665. وبعده تعرّض أكثر من أديب، مثل كورناي، وبايرون، وألكسندر دوما الأب، لهذه الشخصية التي أضحت رمزاً أدبياً بامتياز. ويقارن بعض الأدباء في ألمانيا بين فاوست ودون جوان، باعتبارهما وجهين للإنسان الأوروبي، وكما نجد في مسرحية كريستيان ديتريش غرابه (قدِّمت عام 1829 على المسرح): فمن ناحية يرمز فاوست إلى إنسان الشمال العقلاني الطامح دوماً إلى المعرفة، والذي لا يتورّع عن عقد صفقة مع الشيطان كي يروي ظمأه المعرفي، الإنسان الذي يتطلع إلى أبدية اللحظة، ويستعطفها قائلاً: «تريّثي قليلاً، فما أجملك!»، وعلى الجانب الآخر يجسِّد دون جوان إنسان الجنوب العاطفي الرومانسي الذي يعيش «الآن» و«الهُنا»، فكأنه على العكس من فاوست ينادي اللحظة قائلاً: «سأعيشك مرّة أخرى، فما أجملك!».

ظلت شخصية دون جوان تجذب الأدباء، فعاد إليها ماكس فريش في مسرحيته الهزلية «دون جوان أو عشق الهندسة» التي مُثِّلت عام 1953 في زيورخ، وقدّم فيها الكاتب السويسري معالجة تسخر من هذه الأسطورة. لم يكن بطل فريش عاشقاً وصائداً للنساء، بل شخصية نرجسية تلاحقها النساء، شخصية حزينة لا تعنيها الشهوة، بقدر بحثها عن المكابدات الروحية؛ دون جوان هنا هارب من العلاقات المزيّفة المملّة العادية، ومثقف يهجر عشق النساء ويستبدل به حبّ الهندسة. بعد ذلك بعام قدّم رائد المسرح الملحمي برتولت برشت رؤيته لـ«دون جوان» في مسرحية، استند فيها إلى موليير استناداً يصل إلى الحرفية، لكن الاشتراكي برشت اعتبر العاشق الغاوي نتاجاً لطبقته الاجتماعية المنحلّة، لذا أكّد انتهازية الشخصية وشذوذها. وحسب رأي النقاد فإن الرواية التي كتبها التشيكي يوزف تومان هي من

أكثر المعالجات الأدبية لأسطورة دون جوان تشويقاً وطرافة. ظهرت رواية تومان عام 1944، أي في أحلك فترات الفاشية والطغيان النازي،

وقدّم فيها دون جوان رمزاً للإنسان الذي يخوض صراعاً من أجل الحرية والمبادئ الإنسانية، الإنسان الذي تضطرم العاطفة في داخله، فيشعر بضيق الحدود التي فرضتها عليه الكنيسة والحاكم. دون جوان هنا ليس مغامراً حسّياً شهوانياً، بل هو بطل تراجيدي قُضي عليه بالفشل، أما الإله، ربّ عصر الباروك الرهيب الذي يلوّح دائماً بالانتقام والقصاص، فهو خصمه وعدوّه. ولا يخلّصه من عبودية الشهوة الجامحة سوى الحب الحقيقي الذي تهبه له امرأة.

كما عرفت أسطورة دون جوان طريقها إلى دنيا الموسيقا، وخلّدها موتسارت في «دون جوفاني» (عُرضت لأول مرة في براغ 1787). في هذه الأوبرا جمع عبقريٌّ الموسيقا كلّ أطياف التحوّلات التي تشهدها الروح البشرية المتوترة بين أعماقها الأرضية وذراها الميتافيزيقية. وقد اعتبر الفيلسوف سورين كيركيغارد، في مقالته «إما ... أو» (1843)، دون جوان تجسيداً للشهوة في صورتها المطلقة، واعتبر أوبرا «دون جوفاني» التعبير الكامل عن «العبقرية الحسية».

بعد كل هذه المعالجات، هل بقي جديد يقدّمه بيتر هاندكه في روايته هذه؟ ومن أي زاوية أمكنه الاقتراب من «دون جوان»؟

«دون جوان» هاندكه: ضيف في حديقة الراوي

يستهلّ هاندكه روايته القصيرة بجملة وردت على لسان «دون جوفاني» في أوبرا

موتسارت: «لن تعرف مَن أنا» - هل كتابه محاولة للإمساك بملامح هوية العاشق المغامر؟

من الصفحة الأولى يتضح للقارئ أن دون جوان هاندكه ليس عاشقاً مهووساً بالجنس، ولا شخصاً متمحوراً حول ذاته الذكورية. إنه بالأحرى صعلوكٌ شريد، دائم التنقّل، يهجر بلداً ليحطّ في آخر. «دون جوان» هنا دائم البحث عن الوصال والتواصل. وفي أحد أيام الربيع الجميلة يهبط المغامر في حديقة الراوي، وهو طبّاخ يدير مطعماً بالقرب من أطلال دير «بور رويال» الفرنسي الشهير. قلَّ رواد المطعم حتى كاد الطباخ الفرنسي لا يجد ما يفعله، فأخذ يزجي أيامه بالقراءة. لكنّه سئم ما يقرأ، بل سئم القراءة عموماً، لذا كان سروره عظيماً عندما تعرّف إلى دون جوان، الذي راح يقصّ عليه حكاياته ومغامراته. منحه دون جوان ما كان يبحث عنه في قراءاته: «الرحابة الداخلية والاتساع العابر للحدود»، ومنح هو دون جوان آذاناً مصغية. منذ الوهلة الأولى نشأت بين الطبّاخ وضيفه الرحّالة ألفةٌ تنمو إلى حدّ الصداقة. يتنزّهان معاً، ويتسامران. ثم يحكي دون جوان لمضيفه ما عايشه في الأيام السبعة الأخيرة من رحلته. سبع حكايات يرويها دون جوان في سبع أمسيات عن سبع نساء، كلّ واحدة منهنّ ذات «جمال لا يوصف». ولا تخفى هنا بالطبع رمزية الرقم سبعة الذي يشير إلى الكمال، فكأن دون جوان طاف العالم كلّه، وتعرّف إلى حسناواته جميعهن.

لم تكن الشهوة هي محرّك دون جوان، ولا المجون. إنه يسدّد نظرة إلى امرأة، وتعرف المرأة على الفور أن هذا هو فارسها. لم يكن دون جوان في يومٍ مُغوياً، إنه لم يُغوِ امرأة، كما لم تفتنه حسناء، هكذا يقول الراوي. كلّ امرأة انجذبت إلى دون جوان لأنها رأت فيه «سيّد ذاته». هذا ما تدركه مع مرور الوقت. وفي لحظات الوصال تعتبره «سيّدها». إنه الفارس الذي سينقذها.

لم يخطِّط دون جوان أبداً للإيقاع بامرأة. إنه يستمدّ سلطته من نظرات عينيه. نظرة دون جوان فاعلة؛ ليست نظرات شهوانية، إنها تطلق شهوة المرأة من إسارها، من غير أن تثير الشهوة. المرأة تدرك عندئذٍ كم هي وحيدة، وكم هي جميلة، تشعر بأنها أصبحت أجمل، ليس هناك أجمل منها. يستمدّ دون جوان سطوته من الحزن أيضاً؛ من الحزن على طفل ميت، هكذا يخمّن الراوي، من تماهي اللحظة المَعيشة مع الأبدية، ومن حتمية الهروب الدائم. لم تكن المشكلة التي تشغل بال دون جوان هي العاطفة أو الشهوة، بل الزمن. إنه يريد أن يكون سيّد وقته، ولهذا تنظر النساء إليه باعتباره «سيّد الزمن».

هل يطلعنا هاندكه في روايته القصيرة المفعمة بروح السخرية على أسرار لا نعرفها عن دون جوان؟ هل يبوح لنا بسرّ سطوته على الجنس الناعم؟ هاندكه لا يقدّم حكاية بالمعنى التقليدي؛ إنه يثير أسئلة عديدة، ويقدّم تأملاته عن الحب، وروحانية العشق، ومرور الزمن. «دون جوان» هاندكه تجسيدٌ للوفاء: الوفاء للعاطفة في لحظتها.

في روايته هذه يحطّم هاندكه صور دون جوان الشائعة الواضحة المعالم، ليقدّم صورةً غائمة عن عاشق مسكون بقلق فاوستي يدفعه دوماً إلى مواصلة الرحيل والبحث عن المشاعر الحقيقية. وفي نهاية الرواية يدّعي هاندكه أن كل شخصيات دون جوان السابقة كانت مزيّفة، وأن «دون جوانه» هو الحقيقي والصادق. أم أنه حرص على تأكيد صحة الاستهلال الذي افتتح به الرواية، والمأخوذ من أوبرا «دون جوفاني»: «لن تعرف أبداً مَن أنا»؟

سمير جريس

أيار (مايو) 2019

«لن تعرف مَن أنا»

دابونتي/موتسارت

كان دون جوان دائم البحث عن شخصٍ يصغي إليه. وعثرَ فيَّ، ذات يومٍ جميل، على ذلك الشخص. لم يروِ لي حكايته بضمير المتكلم، بل بضمير الغائب. هكذا أتذكّرها الآن على كلّ حال.

في ذلك الوقت، كنت أطهو الطعام على نحوٍ عابر لنفسي فحسب في المَضيَفَة، حيث نزلت بالقرب من أطلال «بور رويال دي شون»، ذلك الدير الشهير سيّئ السمعة، الذي كان في القرن السابع عشر من أشهر الأديرة في فرنسا. غرف الضيوف القليلة أصبحت أيضاً جزءاً من مسكني. قضيت كلّ أشهر الشتاء وبشائر الربيع في ذلك المسكن، وكان ذلك لا يعني سوى إعداد الأطعمة لنفسي فحسب، والقيام بالأعمال داخل المنزل وفي الحديقة. كنتُ، أساساً، أقضي وقتي في القراءة، وبين الحين والآخر في التطلّع من هذه النافذة العتيقة الصغيرة أو تلك، من نوافذ مطعمي الذي كان عبارة عن مبنى شُيِّدَ آنذاك لحارس «بور رويال دي شون».

منذ فترةٍ طويلة كنت أعيش بلا جيران. لم يكن السبب في ذلك يرجع إليّ. ليس هناك ما هو أحبّ إليّ من الجيران، ومن أن أكون جاراً. لكن فكرة الجيرة فشلت - أم لم تعد تساير العصر؟ على كلٍّ، في لعبة العرض والطلب كنتُ أنا مَن أخفقت. لم يعد أحدٌ يطلب ما أعرضه كطبّاخ وصاحب مطعم. فشلت كرجل أعمال، مع أن أحد الأشياء القليلة التي كنت أؤمن بها دوماً هي الأعمال التي تجمع بين الناس، كلعبة البيع والشراء التي تنشِّط الحياة الاجتماعية.

في شهر أيار (مايو) أهملت العمل في الحديقة كلّها تقريباً، ولم أكد أفعل شيئاً سوى مشاهدة الخضراوات التي زرعتها أو بذرتها وهي تنمو أو تذوي. الشيء نفسه كنت أفعله مع أشجار الفواكه التي زرعتها أيضاً قبل عقدٍ من الزمان، عندما استلمت منزل الحارس وحوّلته إلى مطعم. من الصباح حتى المساء كنت أتمشّى، وأقوم بجولة بعد جولة في الحديقة التي تمتدّ في عمق هضبة «إيل دو فرانس»، حتى أصل إلى التفّاح والكمّثرى والجوز، من دون أن أفعل أيّ شيء سوى الإمساك بكتابٍ في اليد. حتى الطهي وإنضاج الطعام لم أكد أمارسه في تلك الأسابيع الربيعية إلا تلبية للعادة فحسب. بدا أن الحديقة الشعثاء قد بدأت تتعافى، بل وازدانت بمزروعات جديدة مثمرة.

شيئاً فشيئاً بدأت أزهد حتى في القراءة. وفي صباح ذلك اليوم الذي أتاني فيه دون جوان هارباً، كنتُ قد عقدت العزم على أن أهجر الكتب في الوقت الحالي. ومع أنني كنت في منتصف قراءة عملين يتمتعان بالريادة، ليس فقط على مستوى الأدب الفرنسي، وليس فقط في القرن السابع عشر، وهما رسالة جان راسين، التي يدافع فيها عن راهبات «بور رويال»، والمقالة التي كتبها بليز باسكال مهاجماً خصوم الراهبات من الرهبان اليسوعيين. وهكذا قرّرتُ بين لحظة وأخرى أن أكتفي بما قرأت، على الأقل لفترة ما. قرأت ما يكفي؟ كانت الفكرة التي خامرتني في الصباح أكثر ضراوةً من ذلك: «سئمتُ القراءة!»، رغم أنني كنت طوال حياتي قارئاً، طبّاخاً وقارئاً. وأيّ طبّاخ! وأيّ قارئ! عندئذٍ أدركت أيضاً لِمَ كانت الغربان تنعق حانقةً في الأجواء منذ فترة وهي تفيض غضباً: هل كانت حانقة على حال العالم، أم على حالي أنا؟

مجيء دون جوان عصر ذلك اليوم من شهر مايو عوّضني عن القراءة. كان في الحقيقة أكثر من مجرّد تعويض. لقد شعرت بحضور «دون جوان» – وشعرت به يحلُّ محلَّ كلّ أولئك الآباء اليسوعيين السفسطائيين الذين اختفوا تماماً منذ القرن

السابع عشر، وأيضاً محلَّ، فلنقُل: لوسيان لوين وراسكولنيكوف، أو مينهير بيبركورن، أو السنيور بويندیا أو المفتش ميغري(1) - وكأنه نسمة هواء مُحرِّرة. وفي الوقت نفسه وهبني مجيء دون جوان الرحابة الداخلية والاتساع العابر للحدود، بكل معنى الكلمة، تلك الرحابة وذلك الاتساع اللذان لا تجلبهما سوى القراءة القلقة (والمُستَنفَرَة). كان من الممكن أن يكون قد أتى غافاين أو لانسلوت، أو فايرفيتس، ذو البشرة المبقّعة، والأخ غير الشقيق لبارتسيفال – أما بارتسيفال فبالطبع لا!(2) أو ربما أيضاً الأمير ميشكين(3). ولكن الذي جاء كان دون جوان، الذي حمل معه سماتٍ ليست بقليلة ممّن يوصفون بأبطال وصعاليك العصر الوسيط.

هل جاء؟ هل ظهر؟ لقد سقط بالأحرى في حديقتي متعثّراً، عبر السور الخارجي الذي يشكّل جزءاً من مقدمة المَضيَفَة. كان حقّاً يوماً جميلاً. بعد صباحٍ رماديّ كالح انقشعت غيوم السماء، مثلما يحدث في أغلب الأحيان في هضبة «إيل دو فرانس»، وبدت السماء مصمّمة على أن تصفو، وتصفو، وتصفو. كان الهدوء الذي ساد فترة العصر خادعاً كالمعتاد، ولكنه كان سائداً على كل حال في تلك اللحظة؛ وكان مؤثّراً. سمعت لهاث دون جوان قبل أن يدخل مجال بصري بفترة طويلة. عندما كنت طفلاً في الريف شاهدت مرّةً صبياً، ابن فلاحين أو ما أشبه، يهرب من رجال الدرك. مرَّ بي فارّاً على طريق صاعد. لم أرَ ملاحِقيه في البداية، وكلّ ما سُمع هي صيحات: «قف!». ما زلت حتى اليوم أرى وجهَ المُطَارَد، منتفخاً ومحمرّاً، وجسده الذي بدا منكمشاً، في حين طالت ذراعاه المتأرجحتان. أما ما بقي منه في أذني فكان أقوى تأثيراً. كان أكثر وأقلّ من لهاث. وكان أكثر وأقل من صفيرٍ ينبعث من رئتيه. ولا يمكن الحديث هنا عن رئة أو اثنتين. الصوت الذي أحتفظ به في أذني كان يصدر أو يتطاير من الإنسان كله، وليس من باطنه مثلاً، بل من سطحه، من خارجه، من كلّ مسامّ بشرته. لم يصدر ذلك الصوت من هذا الإنسان بعينه، بل من مجموعة، كبيرة، ضخمة، ليس فقط بالنظر إلى ملاحقيه الذين كانوا يزأرون وهم يقتربون منه اقتراباً ملحوظاً، ولكن

أيضاً بالنظر إلى الطبيعة الريفية المحيطة به. احتفظت في ذاكرتي بهذا الأزيز، وبهذه الذبذبات التي تدفع الطريد إلى الخروج من جحره الأخير، كشيء خارق، كنبعٍ من ينابيع القوة الأزلية.

ما إنْ سمعت أنفاس دون جوان، حتى وجدتُ أمامي ذلك الهارب القديم، بعيداً في الأفق وقريباً جدّاً من أذني في آن واحد. وبدلاً من صيحات رجال الدرك آنذاك، حلَّ ضجيج دراجة نارية كان هديرها يعلو بإيقاعٍ متناغم تحت ضغط دوّاسة السرعة، وبدا أنها تقترب تدريجياً من الحديقة مجتازةً كلّ العوائق، على خلاف الأنفاس التي ملأت الحديقة على الفور، ثم راحت تنمو وتتكاثر.

كان السور العتيق قد بدأ يتصدّع في أحد مواضعه، وكانت هناك كوّة تركتها عامداً، ومنها اندفع دون جوان برأسه مقتحماً أرضي. وبالطبع سبقه شيء يشبه الرمح أو الحربة. في شكل قوس انطلق الجسم المقذوف عبر الهواء، ثم انغرس في تربة الأرض بين قدمَيّ. رمشت القطّة التي ترقد بجانبي على العشب مرة أو اثنتين، ثم غفت ثانية، واستقرّ عصفور –أيّ طائر كان بإمكانه أن يفعل ذلك سوى العصفور؟- على حافة الحربة المهتزّة، ثم تواصل الاهتزاز. لم تكن الحربة في الحقيقة سوى عصا ذات حافة مدبّبة قليلاً في الأمام، عصا يستطيع المرء أن يقطعها من أيّ مكان في الغابات المحيطة بوادي «بور رويال».

في ذاكرتي، لم تكن لذلك المُطَارَد من قِبل رجال الدرك الريفي عينان. دون نظرات، الحدقة بيضاء شاحبة وسط الوجه الذي كان في حمرة النار، كحدقة سمكةٍ في الماء المغلي، هكذا مرق بجانبي، بالطفل الذي كنته، وهو يدبّ بقدميه على الأرض (إذا كان دبيب قوة، فهي آخر ما تبقى فيه). ولكن على العكس من ذلك، فقد رآني دون

جوان الهارب. ثبّت عليّ نظرة مباشرة من عينيه المتسعتين وهو يدخل طائراً عبر الكوّة، بجسده، ورأسه، وكتفيه في الأمام، وكأنه عصا. ورغم أن لقاءنا ذاك كان هو الأول، فقد شعرت بالألفة في تلك اللحظة تجاه هذا المقتحم. حتى دون أن يعرّفني بنفسه –الأمر الذي لم يكن في استطاعته على أيّ حال، أنفاسه كانت عبارة عن غناء خاصّ فريد– كنتُ أعلم أن الواقف أمامي هو دون جوان، ليس أي دون جوان، كلا، إنه هو، دون جوان.

ليس دائماً، غير أن ذلك يحدث في حياتي من وقت إلى آخر، أعني أن يبدو أشخاص غرباء تماماً، هم تحديداً، مألوفين لديّ للوهلة الأولى، وهذه الألفة كانت تقود خطواتي، دون الاحتياج إلى أن تتعمّق عبر التعارف الشخصي. كانت تصلح بدايةً لشيء. خلال المرات السابقة (القليلة جداً) أصبح هذا الآخر محلّ ثقة، أما ما حدث عند ظهور دون جوان فكان العكس تماماً: لقد سدّد هو النظرة الأولى، وأوضح لي على الفور أن دور الجليس في الحكاية التي عليه أن يتخلّص منها قد عُهد به إليّ.

ثمّة ما يجمع أيضاً بين المُطَارَد في ذلك الزمن البعيد، ودون جوان الحالي: كلاهما له صورة احتفالية. حقّاً، هكذا أتاني ذلك الصبي اللاهث متعثّراً في يوم الأحد ذلك، حين كان السكان الريفيّون يرتدون ثياباً متشابهة للذهاب إلى الكنيسة. كذلك كان دون جوان اليوم أثناء هروبه يرتدي رداءً احتفالياً، وإن كان رداء خاصاً، مناسباً لنسيم مايو الأزرق. كان الهروب آنذاك، مثل هروب اليوم، يشعّ من تلقاء نفسه بعضاً من أجواء الأعياد. غير أن بهاء الأعياد كان يشعّ من دون جوان نفسه، أما بهاء الصبي الريفي – نعم، ما مصدره؟ فمن ذاته، لم يكن الصبي يشعّ، قطّ، أيَّ بهاء، مطلقاً.

هل انغرست درّاجة المُطارِدين في أرض «رودون»، التي ما زالت حتى اليوم موحِلة

في بعض مناطقها؟ كان هدير المحرك يدوّي من المكان ذاته. لا شيء ينمّ عن الانطلاق أو تزايد السرعة. راحت الدراجة النارية تزأر في رتابة، في سلامٍ تقريباً، كلّ فترةٍ زمنية معيّنة. وقفنا، دون جوان وأنا، عند الكوّة، مرسلين النظر معاً إلى المنطقة المحيطة بنا. كادت الغابة ذات اللون الأخضر الساطع تُخفي عاشقَيْن جلسا على دراجة نارية، كانت تحوِّل اتجاه سيرها في تلك اللحظة، ثم انطلقت بين أشجار النغت والبتولا، في حركة نصف دائرية بطيئة. ما زال حرم الدير السابق، «بور رويال دي شون»، يمنح الأمان للاجئين، ولا يجوز ملاحقة شخصٍ اجتاز حدوده. مَن يطأ هذه الأراضي، حتى وإن كان قد اقترف آثاماً كثيرة، فهو يتمتّع، بادئ ذي بدء، بالأمان. نظرة الثنائي العاشق كانت تشي بأن هذا الدون جوان ليس الرجل الذي يطاردانه. مَن يريدان قتله هو رجلٌ آخر. كان الاضطراب يستحوذ على المرأة بصورة خاصة. أما الرجل فقد لوّح في النهاية، بودٍّ، لدون جوان.

كما هو الحال لدى زوج من المحبّين، معاصر و/أو كلاسيكي، يركب دراجة نارية، كانا يرتديان ملابس من الجلد الأسود، كما وضع كلٌّ منهما على رأسه خوذة تشبه الأخرى كلّ الشبه. ومن البديهي أيضاً أن شعر المرأة الجالسة على المقعد الخلفي، والواضح أنها شابّة، كان يتطاير من تحت الخوذة، وأن شعرها، سواء الظاهر أو المختفي، أشقر. بدت ملامح كليهما، الرجل والمرأة، وكأنهما إخوة، بل توءم. تعارضَ ذلك بالطبع مع الكيفية التي التفّت بها المرأة حول الرجل، متشبّثة به من الخلف، كما كان واضحاً أن البدلة الجلدية تلتصق بجسديهما العاريين تماماً. ألقى الاثنان الملابس عليهما في تعجّل، فكانت كلّ الأربطة والسحّابات مفتوحة، وكاد يبرز من البدلة كلّ ما استطاع البروز. التصقت بظهر الرجل نصف العاري، وعلى ظهره وحده، أوراق وأعواد عشب وبقايا قواقع الحلزون (وبها ما تبقّى من الحلزون)، وأوراق إبرية من شجر التنوب. بدا أعلى ظهر المرأة الشابة، أسفل عظمتي الكتفين مباشرة، أبيضَ اللون دون أيّ بقع. لم نرَ شيئاً ملتصقاً بهما سوى بذرة شجرة حور غضّة ذات غلاف

قطني، للحظةٍ فحسب – إذ ما لبثت أن طارت ثانية. لم ينطلق أخٌ أو أخت للإمساك بدون جوان والإجهاز عليه. تعجّبت من إبر التنوب على ظهر السائق التي انطبعت عميقاً على جلده؛ فمنطقة «بور رويال» ليس فيها أيّ أشجار إبرية.

(1) إشارة إلى الأعمال الأدبية التالية:

• «لوسيان لوين»: عنوان الرواية الثانية التي كتبها الكاتب الفرنسي ستاندال (1783 –1842).

• راسكولنيكوف: الشخصية الرئيسية في رواية «الجريمة والعقاب» لدوستويفسكي (1821–1881).

• مينهير بيبركورن: إحدى الشخصيات في رواية «الجبل السحري» لتوماس مان (1875–1955).

• تروي رواية «مئة عام من العزلة» لغارثيا ماركيز (1927–2014) سيرة عائلة بوينديا.

• المفتش ميغري هو بطل في روايات الكاتب البلجيكي جورج سيمنون (1903–1989). (المترجم).

(2) غافاين من أشهر الشخصيات في الأساطير الكلتية، أما لانسلوت فهو شخصية أسطورية من العصور الوسطى. وأخيراً فإن فايرفيتس هو الأخ غير الشقيق لبارتسيفال في الأسطورة الجرمانية التي تحمل اسم الأخير. (المترجم).

(3) هو بطل رواية «الأبله» لدوستويفكسي. (المترجم).

لفترةٍ ظلَّ وجه دون جوان، المسطّح والعريض جداً، مبقّعاً، فجسّد أمام عيني شخصية «فايرفيتس» بشحمها ولحمها، مثلما تخيّلتُ خلال مطالعتي لكتاب كريتيان دو تروا، الأخَ غير الشقيق لبارسيفال الذي أنجبته موهرين. لكن دون جوان لم يكن مبقّعاً بالأبيض والأسود مثل سَلَفه، بل باللونين الأحمر والأبيض، والأحمر القاني والأبيض. كما أن الشكل المطبوع على وجهه كان محدوداً، ولم يمتدّ إلى الجسد كلّه، مثلما كان الحال لدى «فايرفيتس» الذي تخيّلته. ابتداءً من الرقبة كان يخلو من البقع. وجهه ذو البشرة الحمراء أمامي يشبه رقعة شطرنج. وجه ضخم، لم يكن عابساً على الإطلاق بسبب الهروب، كما أن العينين لم يكن ينقصهما المرح. عليّ أن أعتبره حقيقياً مثل أيّ شيء ملموس، هكذا قال لي وهو يعيد نصل المطواة في يده إلى نصابه. ثم أشار إليّ بأنه جائع. كان يتصبّب عرقاً ويعاني جفافاً، لكن لم يشعر برغبة في الشرب مثلاً، بل في تناول الطعام. أدركت ما يعنيه، وعلى الفور ذهبت، أنا الطباخ، لأعدّ له شيئاً. أدركت أيضاً جوهر هذا الإنسان الحقيقي! لم أعد أعرف بأيّ لغةٍ خاطبني دون جوان عند أطلال دير «بور رويال» في عصر ذلك اليوم من مايو. أياً كان الأمر: لقد فهمته على كلّ حال.

كنت قد نحّيتُ كل أثاث الحديقة إلى زاوية من زوايا السور، وتعمّدتُ تركه هناك

ليَبلى. وهكذا حملتُ إلى الضيف كرسيّاً من المطبخ، فسار إلى الخلف في اتجاهه. في ذلك اليوم الأول من الأسبوع، وخلال مكوث دون جوان عندي، حسبتُ أن هذه الطريقة في المشي إلى الخلف كانت تساعده في أن يُبقي العين على أيّ خطر أو تهديد صادر من ثنائي الدراجة النارية مثلاً. لكني لاحظت أن نظرته لم تكن قطّ نظرة استطلاع وترقّب. بدا لي يقظاً، لكنه لم يكن حذراً. كما أنه لم يتلفّت يمنةً أو يسرةً أو من وراء الكتف، رأسه كان مستقيماً دائماً خلال مشيته إلى الخلف، مشيراً إلى الاتجاه الذي أتى منه. كنت أتوقع من شخص مثل دون جوان أن يكون الاتجاه الذي أتى منه إما الغرب، بقصور النورماندي والأديرة التي لا تزال تعمل وتنتج في «شارتر» وحولها، أو بالأحرى الشرق، بما يضمّه من مقرٍّ سابق، غير بعيد عن هنا، لملك الشمس في فرساي(4)، أو بالأحرى باريس التي لا تبعد كثيراً. لكنه جاء راكضاً، ثم سقط في وادي «رودون» عبر حقول الشمال حيث تقع المدن الجديدة في «إيل دو فرانس»، مربّعات سكنية تلو مربعات سكنية، تكاد لا تضمّ في وسطها سوى مكاتب إدارية. اسم أقرب هذه المدن الجديدة هي مدينة «سان كونتين أُن إيفيلين». من ناحية أخرى فإن هذا الاتجاه يتناسب مع وجود ثنائي الدراجة النارية ذي الملابس الجلدية. ثم، ألا توجد على الأقل شجرة إبريّة واحدة بين «فيل نوفيل» وأطلال الدير القديم هنا، شجرة مميّزة، ألا وهي شجرة الأَرز المنتصبة وحدها على حافة ما تبقّى من الغابات؟ أليست هي الشجرة الأكثر بهاء وعنفواناً في الطبيعة بأكملها؟

وبينما كنت أطهو لدون جوان، رحت أتطلّع إليه عبر النافذة المفتوحة في مطبخي الأرضي، وهو جالس في شمس مايو. لم يكن المنزل يتكوّن إلا من دورٍ أرضي واحد، رحب، وواسع للغاية بالطبع. أخذ هو كذلك، مع الوقت، يتابع ما أفعله. كان في تلك الأثناء قد نهض، ووضع على حافة النافذة بعض المكوّنات الغذائية لاستخدامها في الطهي، بعد أن أخرجها من معطفه الاحتفالي. لم يكن بحاجة إلى أن يشرح لي أنه

جمعها في طريقه إلى هنا هارباً. لم تبدُ أوراق الحُمّاض البستاني، أو سيقان الهليون البري، أو فطر سان جورج الذي فاحت منه -وكما يحدث في كل ربيع- رائحة الطحين الطازج، لم يبدُ كلّ ذلك منتوفاً أو منتزَعاً انتزاعاً من الأرض. كان دون جوان محترف هروب، يجد جوهر ذاته في الهرب، أو بالأحرى أحد جواهر ذاته. لا يعني ذلك أن هروبه كان يخلو من الرعب والخوف. كلا، إنه يعني: أثناء الخوف والرعب كان يرى على نحو أفضل، وأوضح، وأكثر رحابة. الرؤية الرحبة - أليس سببها هو أنه خلال العَدْو هارباً يتلفّت حوله دائماً، ثم في وسط ذلك يعدو إلى الخلف؟ وفي أثناء ذلك كان، على مهله تقريباً، يهيّئ ما يلقاه ليكون جاهزاً للطهي، ويقشره ويغسله وينظفه. أكان هروب دون جوان نوعاً من كسب الوقت؟ كدت أشعر بالغيظ لأنه، وهو الوافد حديثاً إلى هذه المنطقة، قد عثر على كل تلك الكنوز الخفيّة إلى حدٍّ ما، وتلك الذخائر، ولم أعثر أنا أو أنت على أيّ شيء، رغم أني ظللت -أنا الذي أعيش هنا منذ فترة طويلة، والخبير أيضاً- أبحث عنها دون جدوى تقريباً حتى كادت عيناي تسقطان من رأسي. قبل وقت طويل من عيد القديس جورج الذي استمدّ الهدبان، أي فطر «الفرسان»، اسمه منه، أي قبل السادس والعشرين من أبريل، عرّضتُ نفسي للسعِ عشب القُرّاص الطازج المنتشر في كل حواف الغابة غربي «إيل دو فرانس»، وذلك أملاً في العثور على ثمرة واحدة من فطر «الفرسان» الذي يجسّد طيلة العام الجديد الآخرَ، الآخر الثمين، المستديرَ والبهي -وهو أمل بدأ يأخذ، حقاً، بُعداً «مُهِيناً»، وكما قرأت في أحد الكتب التي كنت أطالعها آنذاك- والآن، ها هو ذا الراكض العابر يكوّم على طاولة المطبخ الطويلة اليتيمة كوماً يبلغ طوله ذراعاً كاملاً من ذلك الفطر المشتهى. من ناحية أخرى: فطر الفرسان كان يلائمه ويلائم حكايته كلّ الملاءمة.

قرّب دون جوان كرسيّه من نافذة مطبخي للغاية. قال لي إن مشاهدتي وأنا أعدّ الأطعمة تلهمه. تلهمه؟ بأيّ شيء؟ كان يجلس وكأنه غارق. يرجع ذلك أيضاً إلى العشب العالي الذي تعمّدت ألا أقصّه منذ أسابيع. عندما مرّت القطّة بفروها الأصفر

تباهت بنفسها مثل أسد. لم تكن قطّتي. كانت تسكن أحد بيوت قرية «سان لومبير دو بوا»، القرية الوحيدة القريبة من «بور رويال»، على مبعدة نحو كيلو مترٍ واحد، إذا أخذنا أقصر طريق بين النقطتين، أيْ تبعد مسافة رمية رمح إذا رميناه عدة مرات (مكان إقامتي لم يكن يجاوره سوى أطلال الدير وأبراج الحمام القديمة)؛ في الموعد نفسه من كل عصر، كان هذا الحيوان يأتي إليّ متسلّقاً السور، ويؤنسني عن بعد لفترةٍ، ثم يستكمل جولته في منطقته، الربّ وحده يعلم أين. لم ترسل لي هذه القطة الغريبة ولو مرة واحدة تحية لائقة أثناء زياراتها اليومية العابرة، وهو ما كنت مع الوقت أنتظره وأطلبه بكثير من المرارة. لم يكن لي وجود بالنسبة إليها. على العكس من ذلك راحت في هذه اللحظة تتمسّح بدون جوان، وتندفع المرة تلو الأخرى بين قدميه، من الأمام، ومن الخلف، ثم تعاود الكَرّة. كما حامت حول الوافد الجديد فجأةً جحافلُ من الفراشات مختلفة الأنواع والألوان، وكأنها صورةٌ مصغّرة لأعلام وبيارق ورايات تلوح؛ عدد ليس بالقليل من الفراشات كان يقبع ساكناً فوقه، وخصوصاً على عظام اليد، وعلى الحواجب، وعلى صِوان الأذنين. راحت الفراشات ترتشف من عرق الهروب الذي ما زال يتصبّب من الرجل، والذي أصبح أكثر غزارة وهو في وضع الراحة، هذا العرق أصبح مشروباً لها. أما «فأر المسك» الذي سكن أثاث الحديقة الذي خطّطت له أن يبلى -لم أقابل في حياتي حيواناً أكثر من هذا الفأر نفوراً من الناس- فقد رأيته، بشعر شاربه المتمدّد في دعة، يتشمّم أصابع قدمَي دون جوان. عندما خرجتُ بصينية الطعام إلى الهواء الطلق، كان غرابٌ عملاق يطير فوق المكان، وفي مقدّمة منقاره ما يشبه كرة تنس، وسرعان ما تركها تهوي، فاتضح أنها ثمرة ماراكويا، على ما يبدو مسروقة من أحد الباعة في السوق -أليس اليوم هو يوم السوق في رامبوييه التي لا تبعد عن هنا كثيراً؟- والآن ها هي ذي الثمرة على الأرض في متناول اليد. وغرابٌ ثانٍ، أكثر سواداً وضخامة، ظلَّ قابعاً دون أن ألاحظه في إحدى أشجار الحديقة، وتحديداً في شجرة كستناء تكاثرت أوراقها كثيراً خلال الأسبوع الماضي، انطلق طائراً في اللحظة نفسها تقريباً -صوت فرقعة وكأن جذع الشجرة ينفجر- وتعقّب الطائر الأول في الأجواء، وفي تلك الأثناء انطلقت من قمة الشجرة

عاصفة من العصي، عاصفة من الأغصان العتيقة والمتهالكة، وفي لمح البصر تجمّعت كومة من الحطب على العشب.

استغرق دون جوان في النوم. وضع قدميه على لوح المائدة الذي أمسى هشّاً من الرطوبة، تلك المائدة التي كنت أستعملها طاولة للقراءة. قدماه متورّمتان. خلال الأكل لم يستطع في البداية فتح عينيه، وفي ما بعد أيضاً كاد يغلقهما بعد أن توهّجا للحظة قصيرة. باحت العينان المغلقتان الآن بشيء آخر. خلال تناوله الطعام كان يشحذ قدرته على التخيّل. أم أنها القدرة على التوهّم؟ لا. وفي ما بعد نما داخله إيقاعٌ ما، انفصل سريعاً عن تذوّقه للطعام. أم أن الدندنة التي بدأها لم تكن إيقاعية؟ لقد كانت بالأحرى موسيقية، نغمة اهتزّ على وقعها بكلّ كيانه، وإنْ حدث ذلك على نحو غير ملحوظ. (في ما بعد، منعني دون جوان من أن أطرح عليه أسئلة خلال الحكي، أو أن أعلّق على ما يقوله أو أن أضيف إليه. كان عليّ عموماً أن أتخلّى عن كل الأسئلة).

جلس في شمس مايو اللطيفة وانطلق يحكي، في حين ظللت أنا، المُصغِي إليه، في مكاني شبه الظليل تحت شجيرة البيلسان التي بدأت تزهر في تلك الأيام، وكانت زهورها الصغيرة -كانوا يطلقون عليها في الريف قديماً «الصغيورة» بدلاً من «الصغيرة»- ذات اللون الأصفر المختلط بالبياض، والتي لم تكن تزيد عن حجم زرّ القميص، لا تني تتساقط كالسهام على الحشائش الخاصة التي تنمو تحت شجيرات البيلسان، حتى دون هبوب أيّ نسمة. بين الحين والآخر تقاطعَ مطرُ الأزهار -الذي سقط طوال أيام، بل طوال الأسبوع كلّه- مع بذور أشجار الحور ذات الزغب القطني. حدث ذلك ليس في الحديقة وفي أطلال «بور رويال» فحسب، عبرَ كل الوادي بجداوله المتشعبة غربي «إيل دو فرانس» كانت تلك البذور تتصعلك. بدت هذه الأسراب الطائرة، الهوائية، المسربلة بالضوء، وكأنها تمنح الأثقال والأعباء خفّةً،

وكذلك كل ما هو حجريّ وراسخ وملتصق بالتربة، لتصبح في لحظة مرورها شيئاً بلا وزن، أو على الأقل تخفّف من وزنها. حدث ذلك في الأيام التي تفصل بين عيد صعود المسيح وعيد العنصرة، كانت الأجراس تقرع أكثر من المعتاد بين الغابات، وفي المروج الحافلة بالنباتات المتسلقة المتشابكة كانت تُقرع بعد العيد الأول، ثم قبل العيد الثاني، هابطةً من «سان لومبير» حيث أُلقيت في مقبرة جماعية، في المدافن هناك، جثثُ راهبات «بور رويال» الزنديقات المنبوذات. لم تنقطع سيارات الشرطة عن المرور على الطريق في الخارج، الذي لم يكن سوى شارع ضيّق مسدود ينتهي عند الأطلال، كانت تعبر ببطء وبلا صوت تقريباً، ثم تستدير وتسير ثانية بحثاً عن مَن لا يعلمه سوى الربّ. في أحد الأيام اقتحم حديقة المَضيَفَة إعصارٌ قُمعي في شكل سرب من قاذفات القنابل، وهو في حدّ ذاته لم يكن أمراً غريباً، نظراً لوجود عددٍ ليس بالقليل من المطارات العسكرية في المنطقة الواقعة فوق الوديان البكر التي تجري فيها الجداول، مطار «فيلا كوبلاي»، ومطار «سان سير» بالمدرسة العسكرية فيه؛ رغم ذلك كان الأمر غير مألوف، لأن وحداتٍ جديدة وموديلات أخرى من القاذفات كانت تثير الدوّامات في المنطقة الجوية وهي تطير على ارتفاع قمم الأشجار تقريباً، فتُظلم سماء مايو المائلة إلى الزرقة؛ لعلّها حلقة في سلسلة من المناورات على المستوى الأوروبي، أو ما لا يعلمه سوى الربّ.

غيّر دون جوان ملابسه. أو ربما يكون قلب معطفه فحسب. على كل حال بدا لي وكأنه يرتدي ملابس السفر. تلاءم ذلك مع نهوضه بين الحين والآخر، وسيره بضع خطوات إلى الوراء، وكأنه يتطلّع ليرى ما إذا كانت عربة ما قد وصلت. كانت حكايته الأولى موجّهة إلى نفسه، فكان يغمغم بها إلى باطنه فحسب. سبب ذلك أن ما عايشه، تلك الحكاية مع ثنائي الدراجة النارية، كان قد حدث للتو. لم يكن ناضجاً للحكي بعد. ولهذا لم تكن ثمة مقدمة للحكاية، على أقصى تقدير كان يريد التأكد مما حدث في مناجاةٍ خاطفة مع النفس. لقد رأى نفسه يَرِدُ كثيراً في الأحداث؛ لن

يستطيع أن يرجع بحرّية إلى ما وراء الحكاية إلا إذا كان الأمر لا يتعلّق به. بعد مضيّ فترة زمنية أرى الأمور الآن بالطبع على نحو مختلف. كما أنه لم يقبل تشغيل الموسيقا مع حكايته، أياً كان نوع الموسيقا. كانت تجعله عاجزاً. عاجز عن ماذا؟ عاجز.

دون أن يفكّر في شيء، سار في ذلك اليوم تحت سماء «إيل دو فرانس» الرحبة جداً في شهر مايو. حتى اليوم أيضاً، ورغم شبكة الطرق الكثيفة، ما زال السير ممكناً في أنحاء الحقول؛ وربما يعني ذلك الآن متعة مختلفة تماماً عمّا مضى. لم يهبط في المنطقة إلا مع الصباح – هبط بالمعنى الحرفي للكلمة، بطائرة؛ كان قد قضى الليلة واليوم السابقَين في بلدٍ غريب، مثلما كان يوجد كلّ يوم في منطقة مختلفة من مناطق العالم، وليس في قارّتنا الأوروبية فحسب.

بدت المنطقة المحيطة بـ«بور رويال» مثل سهلٍ كبير مترابط، ولكن عند عبورها يظهر أنها مليئة على نحو مدهش بالأخاديد العميقة. ويرجع ذلك إلى الجداول التي لا تُعدّ ولا تحصى، ونهر «البيفر» الذي يعتبر الجدول الأساسي ومصبّ الجداول الأخرى، والذي ينساب هابطاً ليصبَّ في حوض نهر السين: ما يخدع البصر كأنه سهل، يرتفع عن الأرض كهضبة حافلة بالشرايين المائية والأخاديد العميقة. المجمّعات السكنية الجديدة، لا سيما تلك التي تمدّدت عرضاً وارتفاعاً، والمنشآت المكتبية والصناعية موجودة كلّها، بلا استثناء تقريباً، على الهضبة، وهي هضبة قاحلة بالأحرى، وشديدة الرياح؛ مناطق الغابات القليلة التي تُركت لا تعطي أبداً انطباعاً بالغابة. الأودية، أو الأخاديد، هي بالفعل كثيفة الغابات، على المنحدرات أشجار سنديان وكستناء، وفي الأسفل الأشجار النامية على حافة الجداول، وكذلك أشجار النغت والحور، مع وجود بعض المناطق الخالية من الأشجار، وكذلك طواحين قديمة، إما أنها متداعية، أو تم تحويلها إلى مشاتل أو ساحات لركوب الخيل. ظلّت منطقة

منابع الجداول بكراً طوال قرون، دون منشآت كبيرة، باستثناء تلك القائمة في «بور رويال»، والتي كانت آنذاك، في بدء أخدود نهر «رودون»، على مبعدة نصف يوم بالحصان من باريس، تمثّل مدينة مستقلّة تقريباً، أو بالأحرى قلعة، قلعة الفكر والروح، ونوعاً خاصاً من روح المغامرة. (بدأتُ هنا بمقدمة طويلة، ليس فقط لأن المنطقة المحيطة بأطلال «بور رويال» قريبة إلى قلبي، بل لأني أتوهّم فيها أيضاً المكان الصحيح، أو الممكن، على كل حال المكان الذي يفرض نفسه لكي أحكي هذه الحكاية الآن، أو لجزء من الآن، أو للآن عموماً، مثلها في ذلك مثل الجدران المهجورة في الضواحي الصناعية الإيطالية في أفلام أنطونيوني(5)، والصخور التي تلتهمها الرمال في وادي «مونيومنت» الأميركي لأفلام «رعاة البقر» التي أخرجها جون فورد(6)).

الوادي الشقيق لوادي «رودون»، والواقع عند «سان كنتين»، هو وادي «ميرانتيز». هو أيضاً مهجور في بداية مجراه الذي يحفر طريقه في الهضبة؛ في بعض المناطق، مثلما هو الحال هنا، يكوّن دغلاً من النباتات المتسلقة وأشواك التوت البري، لا يكاد أحد يستطيع اختراقه. هناك ظهر ذات صباح «دون جواني». في البداية سار على طرق الغابة. كان يعرف كيف يسير دون أن يلفت النظر. لم يره العدّاؤون والفرسان، وعددهم ليس بالقليل. لو كان أحدٌ قد خُلق ليمتطي الجواد، فإنه هو – وربما أيضاً لم يُخلق له مطلقاً. كان يشقّ طريقه عبر الشجيرات، مدفوعاً فحسب بالعادة وبروح الإقدام. كل حواسّه تطمح إلى أن يكون سيّد وقته؛ كان يعتبر ذلك مهنته الأساسية، الألف والياء بالنسبة له على كل حال. إذاً، لا شيء يعادل السير نحو أشجار الأرز - حتى لو كان ذلك يعني انحرافاً عن المسار الذي خطّط له- التي كانت تبرز حتى من بعيد في تلك المنطقة الخالية من الأشجار في مروج «ميرانتيز»، نوع داكن وضخم من الأشجار خلف تلك الأدغال المتشابكة البرّاقة.

كما يعثر جامع فطر وحيد أحياناً على جثّة، حسبما يزعمون، هكذا قابل دون جوان في طريقه وسط الغابة فجأةً الثنائي العاري. توقف ساكناً في مكانه. كانت المرأة

تتبدّى، أو بالأحرى يتبدّى ظهرها من الخلف بين الشجيرات. كلّ الكلمات حول ما فعله الاثنان، أو ما حدث لهما، سواء كانت كلماتٍ راقية أو فظّة، لم تكن سوى تعابير تنمّ عن الحرج، وسيظلّ الأمر هكذا. لم يرَ دون جوان من الرجل شيئاً تقريباً سوى ركبة مثنيّة. كما لم تصدر عن الثنائي أيّ جَلَبة. كانا يرقدان في ما يشبه المنخفض، وكان يقف، على الأقل، «على مرمى حجر» منهما؛ وكان حفيف أوراق الأشجار قويّاً، وكذا خرير الغدير.

أول ما خطر على بال دون جوان: أن ينسحب بلا ضوضاء. ثم قرّر أن يبقى ويتابع ما يحدث. كان بالفعل قراراً، قراراً عقلانياً. كان عليه أن يستقبل بحواسّه منظر العاشقين المتوحّدين معاً، اللذين ما زالا في وضع حميم. غير ممكن أن يشيح بوجهه بعيداً. كانت مهمّته الآن أن يدوّن ويقيس. أن يقيس ماذا؟ لم يكن دون جوان يعرف. على كلّ حال، راح ينظر دون إحساس، أو دون أيّ انفعال. لم يشعر إلا بالدهشة، دهشة هادئة، متأصّلة. مع الوقت أضحت نوعاً من الرجفة، وإن كانت تختلف تماماً عن تلك التي تنتاب المرء عبر الإصغاء غير الاختياري إلى ما يحدث، مثلاً، في غرفة مجاورة في الفندق، رجفة هي بالأحرى، عادةً، تعبيرٌ عن رفض يشمل الجسم من الرأس إلى القدم.

كان من الواضح أنهما معاً لم يكونا يشعران خلال ما كانا يفعلانه، على الإطلاق، بأنهما يؤدّيان شيئاً سرّياً ينبغي إخفاؤه. لم يكن فعلهما من أجل جمهور ما فحسب، بل من أجل العالم كلّه. كانا يستعرضان ما يفعلانه أمام العالم. لا يمكن أن يكون المرء أكثر منهما فخراً وعظمة خلال الفعل، لا سيما المرأة الشقراء، أو الصابغة شعرها بلون أشقر، وقد حوّلت هذا المكان النائي الشبيه بالبريّة، الواقع بين شجيرات الجينيستا المزدهرة بالقرب من أشجار الأرز، شيئاً فشيئاً، إلى خشبة مسرح بارزة، كانت بحقّ تعني العالم بالنسبة لهذه اللحظات الطويلة جداً جداً. كانت تمرح مع

الشمس التي سطعت في تلك اللحظة على أكتافها، ثم على خصرها، والآن راحت الشمس على نحو متزايد تتراقص وتتلوّى كثعبان على ردفيها. كم بدت فخورة بنفسها خلال انتصابها وانهماكها في ما تفعل! بدا أيضاً أنها هي وحدها الفاعلة (والأمر في حقيقته يدور حول فعلها هي، وهو أفضل فعل، إن لم يكن هو الفعل الوحيد الذي يمكن أن تقدّمه للعالم، أو لأيّ مخلوقٍ كان)؛ لم يكن الرجل تحتها سوى تكئة، شخص منذور للخدمة، الأداة التي تستخدمها على نحو غير مرئي تقريباً. هكذا، ومع الرجل غير المرئي والمرأة التي ينتشر إشعاع سعادتها بعيداً، كان من الممكن أن يكون ذلك مشهداً معتاداً في فيلم، ومع ذلك، هنا في الطبيعة كان الأمر مختلفاً تماماً، ليس فقط لأن دون جوان، وعلى خلاف الفيلم، لم يتابع الحدث مكبّراً وعن بعد: وحتى وإنْ رآه كبيراً، فإن اللقطة لم تكن تُرى، على أيّ حال، لقطةً مكبّرة.

بعد أسبوعٍ فحسب على الحدث، كان دون جوان يحتفل، بالفكر، مع العاشقَيْن، باليوم الذي رآهما فيه – كان متأكداً من أنهما يحتفلان به، ثم خطر على باله كم هو يانع ذلك اللون الأصفر لزهور الشفويات على أغصان شجيرة الجينيستا الممتدة على جانبي الثنائي؛ وكيف كانت الرياح تفرّق وتجمع بين الشجيرات الصفراء والأخرى ذات اللون نفسه. من فروع شجرة الأرز صدر صرير مميّز لفروع الأرز. وفي الأعالي، في علوٍّ لا يمكن تخيّله تقريباً بالنسبة لطائر، حام أحد طيور العقاب التي لا تغادر في المعتاد أماكنها المفضّلة أو المرتفعات في غابة «رامبوييه»، لكي تطير في الأجواء الجوية القريبة من باريس، إلا في الأيام الهادئة والصافية صفاء بالغاً. بصوتٍ مسموع راحت عدّة دبابير تحتكّ بقطعة من الحطب أضحى لونها رمادياً بفعل عوامل التعرية، وهو ما فعلته هنا أيضاً في حديقتي بإحدى الطاولات الخشبية، عندما كان دون جوان يحكي عن ذلك، نعم، كنا في شهر مايو، شهر بناء أعشاشها. في أحد الغصون المنحنية على غدير «ميرانتيز» الصغير كان شيء مستطيل أو مخطّط يتأرجح أو يهتزّ، شيء أخفّ كثيراً من رباط حذاء أو شريط كاسيت، لا يمكن أن يكون شيء خفيف

هكذا سوى جلد ثعبان مخطّط، إذ ما زالت تعيش ثعابين في منطقة «بور رويال»، أو عادت إليها مرة أخرى. من شجرة الأرز سقط قمعٌ من العام الماضي، وتدحرج بجانب العاشقيْن. لمعت حبّات الرمل في الغدير الهزيل الذي يخلو من الأسماك، وسُمعت من الحقول في أعلى السفح أصوات جرّارات زراعية. على حافة الغابة النامية على المنحدر، فرشت عائلة، مكوّنة من الأجداد والآباء والأطفال، ما يشبه مائدة طعام في الهواء الطلق، وفي أحد الطرق السريعة الموجودة في كل مكان هنا سارت حافلة مدرسية، والتلاميذ متجمّعون كلّهم في مؤخرتها، كانت الأجواء عامرة بتلك الفراشات الصغيرة المائلة للّون البنّيّ، والتي تطير حول بعضها، فتبدو اثنتان منهما كأنهما ثلاث فراشات.

ومع ذلك خاب أمل دون جوان في الثنائي العاشق. ما حدث كان متوقعاً جداً. تعالت أصواتٌ من كليهما؛ صرخاتٌ من المرأة، ثم من الرجل شيء يشبه التذمّر والزمجرة والدمدمة. وقعتْ إلى الأمام، ومسّد هو بيدٍ على ظهرها، وباليد الأخرى هرش الركبة التي ثناها مرة أخرى. في نهاية صرختها مباشرة نطقت هي بكلمة تشبه «حبّ»، وغمغم هو بشيء مشابه. كان على دون جوان أن ينسحب قبل ذلك. ولم يتغيّر شيء أيضاً عندما صدح وقواق بنغمةٍ ثلاثية بدلاً من نغمة ثنائية، وكأنه كان يتهته. صحيح أنه ظلَّ يتابعهما بنظره مؤدّياً واجبه، لكنه راح يعدّ الثواني، أو بالأحرى كان يتلو الأرقام مثلما يفعل المرء عندما يكون مرغماً على البقاء في مكان، أو عندما يطول الزمن بالمرء عموماً. والزمن كان يمثّل بالنسبة إلى دون جوان مشكلة. المشكلة.

لم يلتفت إلا عند انصرافه، الظاهر أن الذباب والنمل هاجم كلا العاريين في البقعة المنخفضة التي رقدا فيها. صحيح أن ذلك لم يكن وضعاً جديداً. ولكنّهما، على ما يبدو، ضاقا به الآن، وازداد ضيقهما به. حتى اللحظة الأخيرة كان دون جوان ينتظر أن يحدث لهما شيء يناقض سير الأشياء. مثلاً؟ لا أسئلة، زجرني دون جوان.

عندما أعرضَ عنهما، وطئ قطعة من الحطب، فلاحظ العاشقان وجوده. صحّح نفسه: لم يكن صوت طقطقة الخشب هو ما جعلهما يستديران، بل التنهيدة التي ندّت عنه، عن المتفرّج. تنهيدة إحباط؟ كفى أسئلة! على كلّ حال لم أسمع من أي إنسان تقريباً تنهيدة مثل تلك التي سمعتها من دون جوان. وهو كان يطلقها دائماً خلال حكيه، مثلما كان يطلقها في أثناء جلوسه ساكناً طيلة الأسبوع. كانت تنهيدة شيخ، وتنهيدة طفل في آن واحد. كانت خافتة إلى أقصى حدّ، نعم، بل رقيقة، رغم ذلك كانت تخترق أيّ ضوضاء، وتخترق الضجيج الصادر بين الحين والآخر من الطريق السريع، الذي راح يتزايد وضوحاً في الآونة الأخيرة في وسط وادي «رودون»، كما كانت تخترق أزيز قاذفات القنابل، التي ظلت طوال سبعة أيام تفرض على رؤوسنا إيقاعها خلال مناورات عيد العنصرة. تنهيدة دون جوان كانت تمنحني الثقة، ليس فقط تجاه هذا الإنسان الجالس أمامي.

على العكس من ذلك، بدت هذه التنهيدة في أذن العاشقَيْن وكأنها خيانة. لم يكن ما أغضبهما أن شخصاً كان يشاهدهما. ارتديا زيّهما بسرعة، وانطلقا في إثره لأن المتفرّج، بتنهيدته، ابتذل ما عايشاه معاً قبل لحظات، وما زال، ربما، يؤثّر فيهما على نحو غير مرئي. وكما في كلّ مرة، وإن كان الوضع يختلف في كلّ مرّة، لم يُرِد دون جوان أن يهرب. عليه ألا يهرب. لا يجوز له أن يهرب. ومثل كلّ مرة، لم يتبقَّ أمامه في النهاية سوى الهرب.

كان يتمتع في تلك المنطقة بميزة أنه على قدميه، ويستطيع أن يجتاز الجداول والشجيرات من أقصر طريق، في حين يتحتّم على ثنائي الدراجة النارية أن يسلك طرقاً ملتفّة عبر المسارات التي تخترق الحقول والجسور القليلة. بل لقد تريّث دون جوان للحظات قبل أن يهرب. لم يكن سيره بين الحين والآخر القهقرى يرجع إلى شيء غير

ذلك، كما يرجع إلى طريقته الأصيلة في الحركة، ولم يكن، على الأقل، تعبيراً عن موقف متهكّم. بالرغم من ذلك كان واضحاً أن سلوكه أثار مَن يلاحقه، إذ إنهما راحا يطاردانه، بجسارةٍ لم تفارقهما، مجتازين كلّ العوائق. كانا يجدّان في إثره، وفي نهاية المطاف تحتّم عليه أن يطلق ساقيه للريح. في تلك الأثناء تعالت صرختهما. كانت تلك بالأحرى صيحات بالطبع، تكاد تكون ودّية. كان عليه ربما أن يتوقف، وأن يبرِّر ما فعله. غير أنه لم يكن لديه ما يقوله. بعد مرور أسبوع، عندما كان لا يزال في حديقتي، وفي يوم وداعه، استطاع أن يلتفت عن بُعد إلى العاشقَيْن، وأن يتمنّى لهما السعادة ومفاجآت على امتداد حياتهما.

وفي ما يتعلّق بحكايته نفسها أيضاً، في مساء يوم وصوله إلى «بور رويال دي شون»، فقد بدأ دون جوان يروي ما حدث قبل أسبوع، في اليوم نفسه، ولكن قبل أسبوع تماماً. كان في تبليسي، في جورجيا. لم يحكِ لي حكاية حياته كلّها، ولا حكاية العام الماضي مثلاً، بل حكاية الأيام السبعة الأخيرة فحسب، وفي الأيام اللاحقة كان يحكي لي في كلّ يوم حكاية يوم. عندما أسترجع الأحداث، أجد أن ذاكرته قد استدعت، في هذا الاثنين على سبيل المثال، يومَ الاثنين من الأسبوع الفائت، تذكّر كلّ شيء بدقّة متناهية، وفي الوقت نفسه بتلقائية ووداعة، وهو ما لم يحدث تقريباً مع يوم الثلاثاء الماضي، أو فلنقل: يوم الاثنين قبل شهر. «في يوم الاثنين قبل أسبوع» -وعلى الفور تنهال الصور، صور اليوم بأكمله، دون استدعاء- تراءت صور اليوم الذي مرّت عليه سبعة أيام، وظهرت على نحوٍ لم تظهر عليه قبل أسبوع، واتخذت مكانها، واصطفّت بالترتيب، وانتظمت بعضها خلف بعض، في سكون، دون ضجيج التذكّر عالي الصوت، وإذا كان هناك إيقاع للتذكر، فهو إيقاع التعاقب الساكن دون تداخل، الأشياء الصغيرة والكبيرة لها القيمة نفسها، لا شيء كبيراً، ولا يعود شيء صغيراً.

هكذا تشكّلت الحكاية. وهكذا سمعت دون جوان وهو يحكي أسبوعه. أسلوبه في

الحكي ينبع أيضاً، ولا شك، من أنه كان يجد نفسه في كلّ يوم في مكانٍ آخر، وأنه كان طوال الأسبوع على سفر. لم يعرف دون جوان الاستقرار في حياته. دون جوان المستقرّ ما كان سيعرف، حتى لو مرّت به أحداث مشابهة، أن يحكي شيئاً عن أيامه السبعة، ليس بهذا الأسلوب على أيّ حال. رواية أسبوع، بدلاً من رواية يوم بمفرده أو سنة، هذا أمرٌ يتلاءم ربما مع شخص مثل هذا الدون جوان. ويناسبني أيضاً. كما أنه مناسب لذلك وتلك، إذا لم يكن في الحرب، ففي أوقات السلام المضطرب والمهَدَّد.

وبينما كان دون جوان يتحدّث عن المحطات السبع في أسبوعه، كان يجعلها واقعاً، ويعيشها من جديد. كانت حكايته تنساب دون أيّ تفاصيل حريفة. لم يكن يتجنّبها، بل كانت منذ البداية بعيدة عن نظره. من البديهي أنْ لا مجال للحديث عنها. «التفاصيل الحريفة» لا تُحكى. نعم، لم يكن لها وجود إطلاقاً. ولم أكن سأحبّ سماع مثلها من البداية. لم تكن مغامرات دون جوان تتعدّى في نظري شخصَه إلا بخلوّها من مثل تلك الأشياء، أما المغامرات فقد تجسّدت في الختام أمامي. بالطبع ظهرت تفاصيل عديدة وكثيرة خلال رجوعه أسبوعاً إلى الوراء، لكنّها تفاصيل من نوع آخر، وتتسم بنوعٍ آخر من المغامرة.

في أثناء هذه الأيام السبعة التي جلس خلالها دون جوان في حديقتي وحكى، لي ولنفسه في آنٍ معاً، لم يسألني مرّةً عن نفسي، أو عن أصلي وأحوالي. أراحني ذلك، إذ إن زائري الوحيد المنتظم خلال الأشهر الماضية كان قسّ «سان لومبير دو بوا»، ولأنه أشعرني بأنه هو الوحيد الذي بقي لي، وأنه عموماً هو آخر شخص في الحياة، فقد كان يزيد من شعوري بأن وضعي لا يحتمل؛ في كثير من الأحيان كنت لا أعي وحدتي إلا بمجيء الكاهن، ثم تلتهمني الوحدة بعد انصرافه. نعم، تلتهم، وتلتهم، وتلتهم؛ كنت أرى نفسي كأحد المرضى على فراش الموت في المنطقة التي كان الكاهن ذو الزيّ الأسود يقوم بجولاته المتقطعة فيها. أصبح ذلك عمله الأساسي، أو كما قال عندما

أفلتت منه ذات مرّة العبارة التالية: «آهٍ، مرضاي الذين يحتضرون!».

كنت أطبخ، ودون جوان يحكي. مع الوقت كنّا نتناول طعامنا معاً على مائدة الحديقة. ودبّت الحياة في مطبخي مرة أخرى. لا شيء ألذّ، على الأقل بالنسبة إلي، من مطبخٍ يتنقّل فيه شخص بمتعة كاملة بين الأطعمة المختلفة. كما في الزمن القديم، كنت أقف في الغالب لا إرادياً على قدم واحدة، وأقفز كالكبش من ركن إلى آخر. وحسب عادتي القديمة، رحت أمسح يديّ بشكل طقسي على القميص المتدلّي فوق سروالي، مثلما كنت أفعل سابقاً بمئزرة المطبخ. أما ضيفي ذلك الأسبوع فلم يحرّك ساكناً. كان معتاداً على أن يقوم أحدٌ بخدمته خدمة كاملة. لم أسأل بالطبع عن سبب غياب خادمه. سيظهر بالتأكيد في الحكاية في الوقت المناسب؛ وهو ما حدث فعلاً. في الظاهر لم يحرّك دون جوان ساكناً، لكنّي كلّما دخلتُ المطبخ، وجدتُ في كل يوم مادة غذائية جديدة، ليس فقط مواد إضافية أو زيادات، كنت أجد مثلاً كيساً صغيراً من الفلفل من مقاطعة «سيتشوان» الصينية، فطراً ربيعياً حالك السواد من تركيا، قطعة من الجبن الأبيض من حليب الغنم من منطقة «لا مانشا» الإسبانية، كفّاً ملآنَ –وكأنه جمعه بنفسه– بالأرزّ البرّي البرازيلي، أو صحناً صغيراً من الحمّص الدمشقي. رغم أنه جاء إلى هنا دون متاع. طوال الأسبوع لم أضطرّ إلى الذهاب إلى السوق الكبيرة التي كنتُ قد سئمتُها منذ زمن طويل.

لا يعني هذا أننا مكثنا طوال تلك الأيام في البيت والحديقة. كان دون جوان يبدأ الحكي في المساء، بعد تناول العشاء، وجبتنا الوحيدة الحقيقية. كان ضوء النهار في شهر مايو يظل تقريباً حتى آخر نشرات الأخبار، التي كنا نشاهدها عندئذٍ في التلفزيون، إلى هذا الحد كان دير «بور رويال» يقع في أقصى الغرب. خلال النهار كنا نتجوّل في المنطقة: أودية بها غابات تتخلّلها جداول، وسفوح بُنيت عليها مدن جديدة. ذات مرة تجوّلنا في المنطقة حتى وصلنا إلى قصر «رامبوييه»، وهناك

هجمت علينا فجأة من الحديقة كلابٌ حرّضها أحدهم علينا، يعلم الربُّ لماذا، وكانت بالطبع تستهدف دون جوان وحده. في يوم ثانٍ تجوّلنا في الاتجاه الآخر، ناحية الشرق، إلى سهل «ساكلاي» حيث وجدنا المفاعل النووي هناك محاصراً بسيارات الشرطة والإطفاء والإسعاف، مع صفارة الإنذار الزاعقة والمستمرّة التي سُمعت في السهل كله. في الوقت نفسه شاهدنا سحليّتين تتزاوجان في سكون بإحدى الحفر الأرضية تحت أقدامنا، وفوقهما في الهواء ذبابتان من فصيلة الذبابة اليومية، متشابكتين، في طيران مترنّح. في اليوم الثالث انطلقنا في طريقنا إلى الشمال، إلى المنابع الأسطورية لنهر «بييفر»، لكننا لم نعثر عليها، لأننا ضللنا الطريق وسط متاهة اصطناعية صُمِّمت حديثاً بمناسبة الاحتفال بالمنابع (المنبع الأساسي، هكذا سمعنا من أحد المتجوّلين الأوفر حظاً منا، حُوِّلَ إلى نافورة). في اليوم الرابع أخذنا الباص السريع إلى سينما «جان رينوار» في مدينة «تراب»، وشاهدنا هناك فيلماً أرادت فيه امرأة أن تغوي رجلاً لكي يموت معها، وأن يسلِّم لها نفسه تماماً، بلحمه وشحمه؛ كان الأمر يزداد جاذبية مع كلّ مشهد، وفي النهاية لم يكن ثمّة مفرّ، ما كان يعني في الختام نهايةَ كلٍّ من الرجل والمرأة. في اليوم الخامس ارتقينا المسافة القصيرة من أسفل وادي «رودون»، إلى الطريق السريع المؤدي إلى «سان ريمي لو شفروز»، وهناك رأينا، في المحطّة، الحافلات السريعة التي تتنقل بين المدن، غير أنها كانت في معظم الأحيان تمرّ بنا فحسب، دون أن تتوقف. وفي اليوم قبل الأخير من الأسبوع، بقينا في مَضيَفتي التي تحتّم علينا أن نسدّ أبوابها ونتحصّن وراءها أحياناً، وذلك في مواجهة أشخاص حاصرونا، نساء كنّ يُرِدن دون جوان. أما آخر أمسيتين من أمسيات الحكي فقد مرّتا في ترقُّبٍ لخطرٍ كان يستفحل من ساعةٍ إلى أخرى.

اليوم الأول من أسبوع دون جوان المنصرم يمكن أن يُحكى هكذا تقريباً: وصل في الصباح إلى تبليسي، بعد رحلة طيران من موسكو عبر القوقاز. كانت الثلوج لا تزال تغطّي قمم القوقاز، وتنتشر أيضاً في أعماق الوديان بين الجبال. في المقابل كان

الانطباع عن الجنوب أكثر حيويةً في السلاسل الجبلية المنحدرة إلى السهل، والتي ظهرت وكأنها، وهي المنطقة البينية الممتدة، بلدٌ كامل خالٍ تقريباً. غفا دون جوان غفوة قصيرة في الطائرة. وعندما استيقظ، وجد كلّ الركاب حوله غارقين في النوم كذلك، بأفواهٍ مفتوحة على اتساعها. كما يحدث كثيراً، حلمَ دون جوان بقصره الذي كان يكتظّ عند عودته بالمقتحمين الأغراب، الذين راحوا ينتشرون في المكان بصخب دون أن يعبؤوا بصاحبه. حلم بذلك، رغم أنه لم يمتلك قصراً، ولا حتى منزلاً، ومنذ فترة طويلة لم يعد لديه شيء أو شخص يعود من أجله.

كان دون جوان يتيماً، وليس ذلك بمعنى مجازي. كان قد فَقَدَ قبل سنوات أقرب الناس إليه، ليس أباه أو أمه، بل فقدَ، هكذا بدا لي، طفلاً، طفلَه الوحيد. قد يتيتّم المرء أيضاً بموت طفل، وأيّ يُتم! أَم أن زوجته، الوحيدة التي أحبها، هي التي ربما توفّيت؟

انطلق إلى جورجيا، مثلما ينطلق إلى أيّ مكان، دون هدفٍ معيّن. لا يدفعه إلى ذلك سوى حزنه وشقائه الذي لا يعرف عزاء. حمل الحزن عبرَ العالم من مكانٍ إلى آخر، ثم نقله إليه، إلى العالم. كان دون جوان يعيش حِدادَه باعتباره قوّة محركة. الحزن كان أكبر منه، وكان يتجاوزه. يمكن القول إنه كان يتسلّح به، ليس هذا فحسب، كان يعلم تماماً أن الحزن لن يجعله خالداً، لكن صلباً منيعاً. جعله الحزن جموحاً، وفي المقابل (أو بالأحرى شيئاً فشيئاً) شفّافاً تماماً، ومتشرّباً لكلّ ما يمكن أن يحدث، وفي الوقت ذاته غير مرئي إذا تطلب الأمر. كان حزنُه زادَه، وغذاءه على كلّ الأصعدة. وبفضله لم تعد لديه احتياجات كبيرة، بل إن مثل تلك الاحتياجات لم تعد تظهر أساساً. كان الدفاع عن نفسه فكرة تلحّ عليه. الحياة الأرضية المثالية ممكنة فيه، في الحزن، وهو ما ينطبق أيضاً على أشياء أخرى (انظر عبارة «نقل الحزن إلى العالم»). لم يكن حزنه عابراً، بل عميقاً. كان نشاطاً يقوم به.

منذ سنوات لم يعد دون جوان يخالط أحداً. على أقصى تقدير كان يتعرّف خلال السفر إلى بعض الأشخاص، وبنهاية الطريق المشترك تصبح هذه المعرفة على الفور طيّ النسيان. من بين هؤلاء كان يوجد بطبيعة الحال عددٌ ليس بالقليل من النساء غير المحرومات من الجمال (رغم أنه بدا وكأن الجميلات بحقّ يقلّ ظهورهن مع مرور الوقت، على كل حال لا يظهرن علانية، ليس في الشوارع والساحات أو خلال الأسفار – وكأنهن يفضّلن البقاء في مكانٍ متوارٍ بالبيت، أو أنهن يسافرن، إذا سافرن، في قلب الليل الدامس، وعبر طرق ملتوية). لكن هؤلاء النسوة، وهنّ منجذبات إلى دون جوان، هذا إذا سمح لهنّ برؤيته أساساً، وهنّ منجذبات خصوصاً إلى كاريزما حزنه القويّ، الذي كان بالنسبة إليهن نوعاً من القوة، هؤلاء النسوة كنّ يبتعدن عنه في كل مرّة بعد الخطوة أو الكلمة الأولى الصغيرة. من ناحيته لم يأتِ ردّ، على أيّ حال، كان أصمّ وأعمى إزاءهنّ، على كلّ حال كإنسان بمفرده أو امرأة بمفردها. كان في الواقع يتجنّب الحديث، بل كان يحترس من أن يفتح فمه من أجل شيء يشبه المحادثة، وكأنه سيفقد قوّته إذا لم يلتزم التزاماً مطلقاً بالصمت، وكأن في ذلك خيانة لكونه على سفر. كم كان سلوك دون جوان مختلفاً اختلافاً جوهرياً قبل أن يتيتّم، أي طوال نصف حياته!

عند هبوط طائرته في تبليسي لاح أمامه عندئذٍ هدف. كما هو الحال دائماً تقريباً، فإن ذلك حدث من تلقاء نفسه، بمجرد وصوله إلى مكان لا يكاد يميّزه، بدايةً، أيُّ شيء. يودّ أن ينطلق، من المطار مباشرة، إلى منطقة «بيدمونت» التي طار فوقها لتوّه، والتي تمتدّ عبر القوقاز كلّه. سيعود إلى تبليسي العظيمة بعد ذلك في المساء، أو في وقتٍ ما، فهو سيّد وقته. ستُظهِر المدينة عندئذٍ نفسَها مثل كلّ مدينة زارها –وهو ما حدث في تلك الأثناء-، لكنه كان يعرف أن مدينة تبليسي، أو تيفليس، كما يطلق عليها البعض، المدينة المتميّزة والفريدة، ستلوح له في الأفق بعد ذلك: لم يعد

الغريب واللافت في أماكن الحاضر واضحاً للعيان، لا بدّ من اقتفاء أثره، وهذا تحديداً جزءٌ من مغامرات دون جوان. خطرت له الفكرة –وهي محض فكرة– مع رؤية الحروف الجورجية، صغيرة تحت الحروف «اللاتينية» الكبيرة، في صالة الوصول (لم تعد صالة مؤقتة، ولم يعد أحدٌ يرى مسافرين بأقفاص الدجاج والأرانب): كانت الحروف في كثافتها، وتناسقها، واستدارتها تكرّر له تتابع سلسلة التلال المنبثقة عن جبال القوقاز. لا بدّ من الذهاب إلى هناك، مع طاقة حزن مُجَدَّدة ومجدِّدة.

أنْ يقوم أحد بخدمة دون جوان كان في الحقيقة أمراً بديهياً بالنسبة إليه قبل مرحلة الحِداد. كلّ شخص جديد يتعرّف إليه كان يرى نفسه على الفور جزءاً من الفريق الذي يقوم على خدمته، في العالم كلّه تقريباً. دون مقدّمات كان السيد يرسله ليحضر كتاباً، أو دواء، أو شيئاً نسيه في المحطة السابقة. لم يكن حتى بحاجة إلى إصدار أوامر، يكفي النطق بما يريد: «نسيت في... قبعتي». (من ناحية أخرى لم يكن دون جوان يطلب شيئاً - ما ذُكر في جملته التقريرية كان يُلبَّى بكلّ بساطة). وبالطبع كان بإمكانه أن يصبح في لمح البصر خادماً للشخص الذي يقف أمامه، سواء كان من المعارف أو من الغرباء. ويا له من خادم! أو بالأحرى يا له من شخص خدوم! يحدث ذلك في كل مرة بلا كلمات أو طلب أيضاً، أن يجلب شيئاً، أو أنْ يساعد أحداً، أن يمدّ له يد العون، دون لفتٍ للأنظار، ومن دون أن يسلك سلوك الخدم، ينفّذ خدماته بشكل عابر، ومرة أخرى يصبح مجهولاً، وهو نفسه بصفته مساعداً كان يكتسب ملامح الشخص المجهول. كان المخدومون يلاحظون خدماته ومساعداته العابرة دون أن يُفاجَؤوا؛ أو أن ذلك يحدث بالأحرى دون أن يلاحظه أحدٌ تقريباً، وكذلك دون شكرٍ أو مكافأة. ورغم ذلك كان يترك انطباعاً لدى الذين يساعدهم بأنه أكثر من خادم صموت، أكثر بكثير.

لأول مرة منذ وقتٍ طويل، اصطحب دون جوان معه خادماً مرة أخرى، في الرحلة التي قام بها في القوقاز. على كل حال، هكذا تعامل على الفور مع السائق الذي لم يكن راضياً فحسب، بل بدا وكأنه ينتظر ذلك. وقف على حافة المطار بجانب سيارة روسية عتيقة، وفتح من بعيد الباب لدون جوان، وله وحده. وبلا كلمات أُبرِم العقد بينهما في التوّ. يتعدّى العقد خدمات اليوم، ومُدّته، بدايةً، غير محدّدة - مَن يعلم إلى متى؟ كان الرجل يوحي بأنه شريكٌ تربطه أُلفة عِشرةٍ قديمة بدون جوان، أكثر من كونه خادماً بدأ العمل لديه. ها هي ذي مرّة أخرى ظاهرة الألفة المميزة التي تبرق في كثير من الأحيان بين دون جوان وشخصٍ مجهول، وإنْ كان ذلك يحدث مع النساء على نحو مختلف تماماً عن الرجال. كان بحوزة الشريك والمرافق في السفر – الذي لم يكن دون جوان يتحدّث معه، إذا تحدّث، إلا باستخدام العبارات النمطية المعتادة في العالم كلّه– من الزاد والوقود ما يكفي أسبوعاً. كانت ملابس الخادم الجديد أرقى بوضوح من سيّده: بدلة بصفّين من الأزرار، وبها منديل ناصع البياض. بجانب السائق يميناً ويساراً انغرست باقة زهور ربيعية صغيرة ملوّنة بكلّ الألوان، فاح أريجها في السيارة كلّها، أو أن الذي فاح كان شذا العطر الغريب الرائع الذي استخدمه الخادم. يبدو أنه تزيَّن هكذا لحضور احتفالٍ خاصّ.

لأول مرة منذ فقدان طفله، شعر دون جوان بأنه فقدَ الطمأنينة التي يمنحها الحزن الذي لا عزاء له، طمأنينة اعتزاله وابتعاده عن كلّ الورطات الممكنة. ومنذ الاستيقاظ من حلمه القصير في الطائرة، كانت اللاطمأنينة قد عادت إليه، لاطمأنينة يعرفها جيداً، يعرفها حتى التخمة، وتجلّت في أنه لم يعد، بين لحظةٍ وأخرى، سيّدَ وقته. أو: لم يعد الوقتُ مِلكَه. أو: اللحظات تحوّلت إلى ثوان. بدلاً من أن يشاهد، ويسمع، ويتنفس، إلى آخره، وقع دون جوان فريسةً للعدّ. كان يعدّ ليس فقط الثواني، بل كلّ شيء، على نحو ميكانيكي أو آلي، كلّ ما يدخل إلى آلته الأوتوماتيكية للعدّ، حتى أنه لم يَعُد الآن سوى تلك الآلة؛ يعدّ صفوف المقاعد في الطائرة، عدد خروم رباط

حذائه، عدد شعيرات حاجب الجالس بجواره. ليس معنى ذلك أنه شعر بغتةً بالضجر. لا، الأمر كان أكثر جدية: لقد سقط دون جوان من لعبة الزمن، اللعبة اللطيفة التي لا تلفت نظر أحد. ربما كان ذلك هو الضجر في أكثر صوره جدّية. مثل هذا العدّ كان يتوقف في الماضي توقّفاً نهائياً بمجرّد أن يقرّر الاختلاط بأحد، على الأقل لمدّة معيّنة؛ بمجرّد أن يقرّر التخلّي عن وحدته. مثل الآن، وهو يجلس بجانب السائق في السيارة الضيّقة المكتظّة بحمولتها.

(4) يُلقّب الملك لويس الرابع عشر (1638–1715) بـ«ملك الشمس»، وهو الذي أمر ببناء قصر فرساي. امتد حكمه لما يزيد عن سبعين عاماً، فكان أطول من حكم في أوروبا في العصر الحديث. (المترجم)

(5) إشارة إلى الخلفيات المعمارية في أفلام المخرج الإيطالي الشهير مايكل أنجلو أنطونيوني (1912–2007)، أحد أكبر مخرجي السينما الإيطالية والعالمية. (م)

(6) جون فورد (1894–1973) أحد عمالقة السينما الهوليوودية، حقق الرقم القياسي في الفوز بجائزة الأوسكار في فرع الإخراج (أربع مرات). وقد اشتهر بإخراج أفلام رعاة البقر (الويسترن أو الكاوبوي). (م)

بدا هواء القوقاز الجنوبية دافئاً، بل كأنه تجسيدٌ للدفء، بعد روسيا التي كانت لا تزال باردة برودة بداية الربيع. أكوام الثلوج الأخيرة في الأحواش الخلفية القصيّة، والتي تغطيها طبقة رمادية قد تختلط على المرء فيعتبرها رمالاً. كانت الشمس مشرقة. شعر بها كلاهما، وعلى نحو متزايد في الظهر، التلال السفحية كانت ترتفع تدريجياً في رفق، مظهرةً نقشاً واضحاً كأنه محفورٌ على نموذج مصغّر، مصنوع من الورق المقوى مثلاً. ولكن، بالطبع، لا شيء ورقياً أو مفرغاً: هنا كتلة مُدمَجة، ثقيلة الوطأة، متضافرة على نحو لا يمكن فصله؛ طميٌ مع أحجار طينية مع جذور وتدية مصابة بفطر، اللون الأصفر كبريتي يمتزج بالأحمر الطوبي والرمادي المِلحي والسواد الفحمي. المساحات الرملية أيضاً لم تكن ليّنة أو رخوة، بل متلاصقة كأنها كتلة واحدة؛ مَن يمدّ يده ليغرف ما يملأ الكفّ، سيُدمي ما حول أظافره على الفور، ومن الرمال المزعومة لن يتبقّى في أنامله ولا حبة واحدة. ليس ثمة سحابة غبار واحدة أيضاً، رغم غياب النباتات في مساحات كاملة غياباً شبه تامّ (عارية مثل كثبان بيضاء كانت تلك الطبيعة التي تبدو رملية)، رغم أن رياحاً قوية ومفاجئة كانت تهبّ بين الحين والآخر، وفي كل مرة من اتجاه مختلف. ظهرت السفوح، ومنطقة البلقان كلها،

جذابة وموحّدة لكل الحواس، ليتضح بعد ذلك أنها وعرة ومنفّرة بالمعنى الحرفي للكلمة. كانت تشير على نحو مغناطيسي إلى باطنها؛ لكن، ليس ثمة باطن. ذكَّرت تلك الطبيعة دون جوان، عند وصوله إلى هناك قبل أسبوع، بما يُطلَق عليه: «الأرض الرديئة»، في ولاية داكوتا الجنوبية بالولايات المتحدة، حيث نظامٌ من مجارٍ، عميقة وواسعة، محفورة في تلالٍ طينيّة مترامية الأطراف، كلّ مجرى في حدّ ذاته كان يَعِدُ بوادٍ يقود إلى البعيد، البعيد، لكن الوديان جميعاً، وبلا استثناء، لا تقود إلى شيء، أو تقود إلى جدران طينية متشقّقة عارية، أو إلى نهايات الشعاب الجبلية الجافة والنحيلة والمتشقّقة منذ آلاف الأعوام. لكنه عندما حكى لي عن ذلك بعد أسبوع، فقد حدث له العكس مع السلاسل الجبلية في القوقاز: الأرض الرديئة المشهورة، بل المعروفة عالمياً، تناءت الآن وشحبت، وكأنها مجرد تمهيد أو رسم أوّلي للأراضي التي لا اسم لها تقريباً والتي يكاد لا يزورها إنسان، أو ليست سوى نسخة باهتة منها. بدت له هذه الأراضي ذات عرامة لا تُقارن بوديان الأراضي الرديئة النموذجية السابق ذكرها. كانت موجودة، هكذا أو على نحو مخالف، في حين أن الأراضي الرديئة التي خلّدتها الأفلام... لماذا يتحدّث دون جوان في حكايته أساساً بهذه الاستفاضة وهذا الإسهاب عن تلك الطبيعة: لأن كل التضاريس الطبيعية الستة في الأيام التالية كانت تتشابه معها، على هذا النحو أو ذاك. في كل يوم جديد يطأ بلداً جديداً، وفي كثير من الأحيان بلداً بعيداً، والطبيعة الجغرافية التي تشهد أحداث اليوم، كانت، أو أمست في كلّ مرّة هي الطبيعة نفسها. ولهذا كان يستطيع، في المحطة التالية في حكايته، أن يستغني عن وصف ملامح مكان الأحداث (أو اللاأحداث).

لم تكن منحدرات القوقاز الجنوبية في ذلك الصباح خالية من البشر إطلاقاً، بل إن الناس -هكذا أتذكّر- كانوا يتزاحمون على جانبي الطريق السريع. كانوا جميعاً، حسبما أظهرهم لي في حكايته، يسيرون على الأقدام، والمركبة الوحيدة في كل الطرق كانت السيارة التي يقودها خادمه. الشرق؟ لا أثر له: بدا الشرق منذ أمدٍ بعيد غرباً،

سواء في ما يتعلّق بالملابس أو بالسلوك، أو حتى بالروائح، كما بدا الغرب شرقاً، إلى آخره. ربما كان الشيء الوحيد المميّز خلال الأيام السبعة هو نسيم مايو الذي تواصل هبوبه، وزغب بذور أشجار الحور الذي تخلّل الهواء واخترقه وطار معه.

لم ينظر دون جوان إلى أحد من الذين عبروا حافة الطريق باعتباره شخصاً انفرادياً، إذ لم تقابله سوى مجموعات من البشر، مجموعات صغيرة دائماً، لكنّها لا تعدّ ولا تحصى. لو لم يكن توقف عن العدّ عند ركوبه السيارة، فبالتأكيد كان سيفعل ذلك، وعلى أقصى تقدير، قبل ظهور تلك المواكب المتعددة وهجرات الشعوب.

كان السائق في طريقه إلى عُرس سيحضره دون جوان، بالطبع لم يدعُه أحدٌ كضيف. في السنوات الماضية شارك مرات عديدة في احتفالات أشخاص مجهولين، ولم يشارك في سواها. وبالطبع اقتصرت تلك الاحتفالات، حتى ذلك اليوم في القوقاز، على المآتم. في الجنازات فحسب يستطيع المرء أن يندسّ في موكب من الناس دون أي صعوبات – في حفل التعميد، مثلاً، يبقى الركن في الكنيسة، أو في أي مكان آخر، مخصَّصاً في المعتاد لمجموعة معيّنة، أو تكون الكنيسة كلّها محجوزة لها. كان أمراً لطيفاً أن يحصل المرء على انطباعٍ تقريبي، في الهواء الطلق بعد الاحتفال، عن شعر الطفل المُعمّد المبلّل مثلاً، أو رأسه الأصلع المبلول، أو أن يرى كوكبة من البنات اللائي يتلقّين الأسرار المقدّسة لأول مرة وهنّ يقفن في الشمس بعد إتمام الطقس، أو وهنّ يلعقن الآيس كريم.

في الجزء الأخير من المسافة، قبل قرية العُرس، تحوّل دون جوان من مرافق سائق إلى سائق؛ استلقى الخادم بين الصفائح والسلال على المقعد الخلفي واستغرق على الفور في النوم، بعد أن شرح لسيّده الطريق. عندما يكون المرء في أغلب الأحيان

بمفرده، بلا رفقة، يصبح انتباهه إلى العالم المحيط به أكثر حدّةً ورهافة، ويتعمّق ذلك داخل المرء في صحبة نائم، لا سيما إذا كان ذلك يغفو بلا هموم وفي سلام، مثلما يفعل هذا الشخص الذي تعرّف إليه حديثاً بوجهه المليء بالخدوش. (لاحظتُ كيف يستخدم دون جوان في حكايته كثيراً كلمة «المرء» بدلاً من أن يقول «أنا»، وكأنّ عمومية معايشاته أمرٌ بديهيّ بالنسبة إليه – لو أراد الربّ، لكانت حياتي سارت على هذا النحو، بحلوها ومرِّها، والمرّ أكثر من الحلو في الآونة الأخيرة).

صحيح أنه لم يتجنّب في السنوات الماضية رؤية الناس أو استقباله لهم بحواسّه، لكنّ انتباهه كان منصبّاً إما على المسنّين جداً أو الشباب جداً، أي الأطفال. أما الكتلة الضخمة بينهما، الأغلبية التي على ما يبدو تسود وتقوى يوماً بعد يوم، فقد تغافل عنها. لم يكن لها وجود، ولا أهمية. ولهذا كان دون جوان يتطلّع في كلّ يومٍ بإلحاح متزايد باحثاً عن شخص هرِم وضعيف و/أو عن شخص لا حول له ولا قوة. كانت ملاحظتهم، ومنحهم التقدير عبر النظر إليهم، تعني له أكثر من التعمّق في رؤية في أيّ طبيعة كانت، كما أنها تعني له شيئاً مختلفاً. وفي المقابل فإن الحصول على نظرة تكريم يمنح بالتأكيد أولئك المسنين والأقزام شيئاً كالبرق المنعش. الغريب أن الطاعنين في العمر يبدون أطفالاً لم يُصِبهم مكروه، عندما يقبلهم المرء، تشرق وجوههم؛ في حين أن الأطفال الصغار والصغار جداً يبدون - لن أقول عجائز، ولكن رزناء، بل وحكماء، وكلّما صغر سنّهم، ازدادت رزانتهم وحكمتهم. وحده هذا «الضرب من الناس» أو ذاك كان له وجه بالنسبة إلى دون جوان، وهو ما بدا أقلّية آخذة في التلاشي.

إذا كان كل شيء مما قيل الآن قد بدأ بالنائم خلفه، فلم يكن هو وحده الذي جعله، ربما، يتغيّر بعض الشيء. كما لم يكن، بالدرجة الأولى، هو ذلك الميت الذي رقد فجأة في دمائه بعينين مفتوحتين بعد أحد المنحنيات. (أو من المحتمل أن يكون هو السبب). أياً كان الأمر: شيئاً فشيئاً قابلت دون جوان في رحلته وجوهٌ من مختلف

الأعمار؛ وحتى الذين في منتصف العمر، الذين بدوا للمرء في الآونة الأخيرة أشخاصاً تافهين بلا شكل، ظهروا الآن في مظهرٍ حسن. العيون هي التي قابلته، وليس الوجوه. لم تكن الأشكال هي التي منحت وجهاً لأولئك الزاحفين والمتقدمين على حافة الطريق السريع وكأنهم مجموعات في موكب، كانت بالأحرى الألوان. كانت أيضاً إشارة إلى الزمن الجديد: لم تكن ألوان العيون هذه، في أعماق القوقاز، كلّها بُنّية أو سوداء مثلاً. لقد صادفه، أيضاً، وبالكثرة نفسها، الأخضر والأزرق، والرمادي الفاتح والداكن. وهكذا من الممكن ملاحظة التالي: حتى إذا كانت الوجوه متقلّصة الملامح، من الإجهاد أو اليأس، من الغضب والكراهية، وفي بعض الأحيان من الرغبة في القتل، حتى إذا كانت تلك العيون تنظر نظراتٍ شريرة، أو نظرات ذاهلة، أو متكبّرة، أو كانت ببساطة تنظر بغباء، فإن ألوان العيون نفسها كانت جميلة، ذلك التتابع من ألوان العيون، هذا إذا استطاع المرء النفاذ إليها وحدها، وملاحقتها وهي تلمع أو ترقص، لوناً بعد آخر. في التتابع، وتحديداً لأن كل شخص من السائرين، بلا استثناء، كان ينظر في اتجاهٍ مختلف، وكأنه ينظر إلى اللاشيء، فإن هذه الألوان تعطي نبضةً، نبضة لشخص أو لشيء. مثلما يودّ المرء أحياناً أن يمسح على رأس طفلٍ غريب أثناء مروره به (وهو ما يفعله أيضاً في بعض الأحيان)، ومثلما يودّ أن يضع ذراعه على كتف أحد المسنّين في الشارع (وهو ما لم يفعله أبداً)، هكذا يودّ المرء أن يتحسّس بأنامله كلّ، نعم، كلّ تلك العيون والمُقَل، وأن يمسّها بشفاه، الألوان هناك تنتظر شيئاً كهذا. («المرء»). ورغم أن دون جوان مرَّ بها بسيارته، فقد بدا له بعد مرور أسبوع أنه كان يتمشّى، تمشيةً بطيئة للغاية.

لم يكن هو، إذاً، الذي بدأ بتبادل النظرات مع العروس. بادئ ذي بدء صوّبت هي نظرتها إليه. حدث ذلك في قاعة، لكنّه بعد سبعة أيام رأى دون جوان المرأة في مكان بلا سقف، في الهواء الطلق. كان المحتفلون بالعُرس يجلسون إلى مائدة طويلة، وتم توزيع الضيوف المتطفّلين، مثله، الذين لم يكن عددهم قليلاً، على عددٍ من الموائد

الصغيرة. كان من نصيب دون جوان أصغر مائدة في أبعد أركان الصالة، دون أن يعني ذلك انتقاصاً من قدره. كان ذلك بالأحرى تلاقياً بين كرم الضيافة وحسن الرؤية، وهو ما يعني أيضا أن المائدة كانت له وحده، ومنها يطلّ المرء في الوقت نفسه على القاعة بأكملها، وعلى الطبيعة القروية خلف النوافذ. من المرجّح أن خادمه كان عضواً في العشيرة، وجاء مكانه على المائدة الرئيسية، ومن هناك كان يأتي متناولاً الأطباق من الخدم في القاعة ليضعها على مائدة سيده.

حكى لي دون جوان كيف فزع عندما نظرت إليه العروس. لم يكن في نظرتها شيء مميّز، لم تكن سوى رمشة عين. وهي، دون أن تفعل شيئاً آخر، غازلته بعينيها الجميلتين أجمل مغازلة. أما فزعه هو -دون جوان- فلم يكن له علاقة بالذعر أو الهلع. كان استيقاظاً مفاجئاً، وهادئاً، بعد سنوات من النوم، أو بالأحرى من الحياة الفارغة. سكون: بغتةً صمتت في رأسه همهمات حديثه الدائم مع الذات. واتسع الأفق أمام جبهته. ورغم ذلك كان عليه أن يتغلّب على اضطرابه أولاً. نهض بحسم وسار بخطواتٍ واسعة، في اتجاهها؟ - خارجاً من القاعة.

أخذ قراره فوراً. لم تعد العودة ممكنة. كلمة الهروب ليس لها وجود في قاموس دون جوان، عليه أن يواجه المرأة الغريبة، هذا هو واجبه. (حتى لو لم يستخدم أمامي كمستمع كلمة «واجب» بشكل مستمر، فقد كانت الكلمة حاضرة بشدة في كثير من الأحيان). مرحلة من مراحل حياته ستنتهي مساء هذا اليوم على أقصى تقدير، وقد كان يراها حقاً كمرحلة. تقع القرية القوقازية على قمة صخرية جرداء إلى حدٍّ كبير. وبينما كان يقطعها في منحنيات تتسع كلما مضى، ثم يسلك طريقاً ملتوياً بعد الآخر في اتجاه المراعي والأراضي القاحلة، اعتقدَ أنه يعلم أن كلّ تلك الأشياء التي يزعمون أنها صغيرة أو غير مهمّة، والتي كانت بالنسبة إليه طوال حقبة من الزمن أكثر أهمية من أيّ شيء آخر، أو من أيّ شخص آخر في العالم، اعتقدَ أنه

يعيها لآخر مرة في حياته. المرأة كحقيقة ستزيحُ مرة أخرى آلافَ الأشياء التافهة اليومية، والجريئة رغم ذلك، وكما حدث في ماضٍ لم يعد قائماً منذ أمد بعيد، ستزيحها ولن تدع لها فرصة للحياة مرة أخرى. المرأة كلعنة؟ كلعنة قحط وجدب؟

لم يكن دون جوان يعرف بعد أنه، على الأقل في ما يتعلّق بذلك، قد أخطأ هذه المرة، أخطأ في حقّ نفسه أولاً. وهكذا حانت ساعة الوداع خلال سيره في المنعطف. لم تعد الحقول الثلجية الممتدة شمالاً إلى المرتفعات تمثّل بالنسبة إليه أيّ حقيقة، ليس في الفترة المقبلة، أو إلى الأبد. صفير الرياح وسط الشجيرات الشائكة: هل تعزفين، أيتها الشجيرات، لي الآن مرة أخرى؟ موكب الجنازة، قلائل معظمهم مسنّون وطفل، يسيرون خلف تابوت، في الأمام هناك، بينما تنتقل موسيقا العرس من النغمات الشعبية في البداية إلى النغمات العابرة للقارات: التريّث قليلاً لديكم أيها الحزانى. وداعاً، يا صفرة الطمي ويا حمرة الطين! عمتِ مساء، يا زهور الجينيستا ويا دروب النمل! وإلى غير رجعة يا وبر صوف الغنم على أسلاك المراعي!

استدعاؤه لتلك الحقبة لم يعد له تأثير. الزمن الآخر، زمن النساء، كان جزءاً من لحمه ودمه، أثره أو تأثيره كان قد بدأ بنهوض دون جوان من مائدته الركنية وخروجه منسحباً إلى الهواء الطلق. وسرعان ما أصبح أكثر من راضٍ عن الزمن الآخر. صحيح أن اسمه: الخطر!، لكن هذا أشعل جذوته من جديد، أخيراً.

في طريق العودة، أفسحت له كلاب القرية الطريق. راحت قطّةٌ من قطط القرية – وقد تكون أيضا قطّةً برية– تتمرّغ على ظهرها تحت الشجيرات، وتمسح على قدميها بلا انقطاع. هاجمته خنافس كبيرة طائرة تصدر طنيناً نما حتى أصبح أزيزاً، على كل حال كانت تراوغه خلال طيرانها. كان دون جوان ينظر دائماً إلى تلك الحشرات

باعتبارها رُسلاً تحمل رسائل لا يستطيع ولا يريد معرفتها. كان يتلقّاها بأدبٍ جمّ، وكان يوجّه الكلام إلى الخنازير والحمير والبطّ في بركة القرية الخالية من الماء وكأنه يوجّهه إلى سيدات وسادة، يتحدّث معهم بجملٍ كاملة، مسهبة، عتيقة، ورغم ذلك تتمتع بالآنية. وعندما يجدّ الجدّ، كان يشرع دائماً في التحدّث هكذا، وهكذا أيضاً كان يناجي ذاته في صمت.

كم كانت جميلة وطيبة تلك الفترة الطويلة من الصعلكة وحيداً، دون صداقات، دون عداوات! لم يؤذِ أحداً. لم يعِد أحداً بشيء. لم يكن ملتزماً تجاه أحد بشيء. والآن، ملزمٌ هو. وهو على وشك أن يجرح أحداً، أو ربما يدمّره. كان دون جوان يعي أنّ عليه، وهو ينحني تجاه المرأة، أنْ يتوقع، في الوقت نفسه، عدواً (وهو لا يعني بذلك العريس أو والد العروس أو شقيقها)، كما أنه هو نفسه كان يرى ذاته، على الأقل جزءاً من ذاته، وكأنها عدو، أكثر أنواع الأعداء برودةً وشرّاً. ماذا يفعل؟ بانسحابه، سيتحوّل إلى نصّاب ومحتال. وبإقباله عليها، ستكون النتيجة الحتمية بالنسبة إليها، وهذا ما كان يعلمه، أن تعطي صورة المهجورة في كل الأحوال، والمنتقمة، حتى لو كان ذلك ربما بالأفكار فحسب، لكن ذلك يكون في البعد أكثر تأثيراً في معظم الأحيان. كم كانت وحدته جميلة وطيّبة! وكم كانت موحشة وتافهة! نعم، بل وسخيفة! ستحدث الأمور مثلما شاء لها أن تحدث. الأكيد هو: إذا تحاشاها، تلك التي تريده، الآن!، فسيكون ذلك نوعاً خاصاً جداً من الهجر، شكلاً من التخلّي يتسم على نحو خاص بالجبن والحقارة.

على عتبة قاعة العرس، وبورقة من الشجرة الوحيدة المزروعة في الفناء، نظّف دون جوان حذاءه بعناية. وفرك بين يديه ربطةً من الزعتر البري. فتح عينيه وأغلقهما بسرعة عدة مرات متتالية، وربت على وجنتيه بإيقاعٍ موسيقيّ مثلما يفعل الأبطال في الأفلام القديمة، بعد أن يضعوا كولونيا ما بعد الحلاقة. في الداخل صدحت ثانيةً

موسيقا الرقص التي توقفت قبل فترة، وبدلاً من الدوران على وقعها، وقف على قدم واحدة وألقى نظرة عبر كتفه إلى الوراء وإلى أعلى، إلى السماء التي رآها رحبة الصدر على نحو لم يعهده من قبل، في حين خطر على باله في الوقت ذاته، وهو ما آلمه كما لم يؤلمه شيء، طفله الميت. هذه السماء، كم هي خصبة، وكم تبدو للمرء متجسّدة ورحبة على نحو لا يُقارن، إذا تطلع المرء إليها في لحظة معيّنة، لا شيء أكثر رحابة منها، ولا رحابة أكثر تجسُّداً منها. لكنها ستختفي، مؤقتاً، بدءاً من هذه اللحظة. يشبه ذلك إسكافيّاً جاء من الشارع المشمس ليدخل ورشته المظلمة، ويبقى فيها طوال اليوم، أو عاملاً يختفي في منجمه، وليس فقط طوال يوم عمل واحد - هكذا خطا دون جوان فوق العتبة عائداً إلى القاعة؛ على كل حال، لقد تسرّبت هذه الصور إلى كلامه وهو يحكي.

إلى جانب نظراته إلى العروس، كان قد ألقى نظراتٍ معجبة على هذا أو ذاك في القاعة. مثل خادمه الذي راح يمازح ويغازل أقبح الموجودات، ويضحك لهنّ مثلما لا يفعل المرء سوى مع الجميلات. ومثل الشبّان، على وجه الخصوص، الذين كانوا لا يملّون السير إلى النافذة المفتوحة، ثم البصق منها، في اتجاه القوقاز، وكأن ذلك طقسٌ قديم يُمارس في الأعراس. ومثل قسّ القرية المجاورة الذي قطع الطريق البعيد عبر التلال الحجرية والدروب بين الصخور سيراً على الأقدام، ثم انضمّ إلى الحفل؛ كان رداء الكاهن الأسود الطويل الذي يصل إلى الأرض، من الركبة إلى أعلى، ملوّناً بالأصفر من الطمي وغبار زهور الجينيستا، وقف في الباب ورفع في الهواء أصابع يده اليمنى رأسياً وأفقياً راسماً علامة الصليب، كي ينال جميع الحاضرين بركة الرب، في حين لمع وجهه عميق السمرة الذي خلا من العرق، وبرز من بين شفتيه شيء طويل، ونحيف جداً وفاتح اللون، شيء مدبّب: خلّة الأسنان. كان كل ضيوف العرس، وبضمنهم المرضى والأطفال –هذا إذا كانوا جالسين هناك من الأساس- ينهضون عند قرع الأنخاب المتعاقبة، ويصغون إلى هذا أو ذاك الذي يُقرع نخبه، وخلال ذلك يسود

السكون التام في القاعة.

الآن، لم يعد ثمة أحدٌ أو شيء سوى المرأة الغريبة. حتى قبل ذلك لم يعد العريس يقف بجانبها إلا نادراً، أو كان هناك كظل، لا، ولا حتى كظل، لم يكن سوى كتف، قميص أبيض، شارب. لم يعد أحد يلتفت إليه الآن مطلقاً. شخص يمكن استبداله، ليس حتى شخصاً يملأ ثغرة أو بديلاً لأحد – هو رقم يمكن إهماله في المعادلة التي يجب حلّها. كانت مهمة يحدّدها عاملان فحسب: هو، دون جوان، وهي، العروس هناك. أيّ عروس؟ لم تعد ثمة عروس تجلس، لم تعد هناك سوى المرأة. وهي - بالمناسبة، مثل كلّ النساء اللائي أصبحن خلال الأسبوع، بأيّ طريقة كانت، نساءه– كانت، بالطبع، جميلةً جمالاً لا يوصف.

واصل الحكي قائلاً إنه، واقفاً في إطار الباب، رآها مقرّبة ومكبّرة وكأنه ينظر عبر تليسكوب، كما كانت حصرية بشكل خاص، مثلما يرى المرء في بؤرة عدسة نظارة مكبّرة حبّةَ كرز وحدها، أو لا يرى سوى القمر في السماء الليلية، البدر الذي يملأ العدسة المستديرة، دون أيّ أثر للّيل المحيط به. لم تكن بحاجة إلى توجيه نظرة أخرى إليه؛ رمشة عين ثانية منها، وكانت المهمة ستفقد قيمتها على الفور، وقد كانت في تلك اللحظة أكثر قيمةً من أي شيء آخر في العالم.

لم يكن دون جوان مُغوِياً. لم يُغوِ امرأةً أبداً. صحيح أنه قابل نساء أشعْنَ عنه ذلك في ما بعد. إما أن أولئك النساء يكذبن، أو أن الاضطراب تملّكهن، وكنّ يقصدن بذلك شيئاً مختلفاً تماماً. والعكس أيضاً، لم تغرِ أي امرأة دون جوان. قد يحدث أن يترك المرأة التي تودّ أن تكون مغوية تفرض إرادتها، أو ما شئت تسميته، لكن في لمح البصر يتضح لها أن الأمر لم يعد إغراء، وأنه هو، الرجل، لا يجسّد الشخص المفتون، ولا ضدّه أيضاً. إن لديه سطوة، غير أن سطوته مختلفة.

كانَ، دون جوان، يشعر بالخجل أمام سطوته هذه. قد يكون تصرّف في إحدى المرات بخجلٍ أقل. لكنه أمسى منذ وقت طويل يتورّع عن استخدام سطوته. روى لي

بلا مقدمات، وبنبرة تخلو من التفاخر أو التباهي، بالأحرى عَرَضاً، أن أولئك النساء اللائي يدور الكلام حولهن، على الأقل في هذه الحكاية، يرون فيه السيد، ليس في لحظة اللقاء الأولى، بل في لحظة المعرفة. الرجال الآخرون كانوا وسيكونون مَن هم، وما هم، أما دون جوان فقط، فإن النساء ينظرن إليه، نعم، ينظرن إليه، كسيّدٍ لهنّ، السيد الوحيد، إلى الأبد (دون «سيطرة»). وكسيّدٍ كنّ يعاملنه، تقريباً («تقريباً») كمخلِّص. مُخلِّص من أيّ شيء؟ مُخلّصٌ ببساطة. الخلاص من أيّ شيء؟ الخلاص ببساطة. أو أنه ببساطة: يأخذ النساء بعيداً، بعيداً عن الهُنا، والهُنا والهُنا.

سطوة دون جوان كانت نابعة من عينيه. لا حاجة إلى ذِكر أنه لا يمكن الحديث هنا عن أيّ نظراتٍ مدرّبة. لم يكن ذلك في نيّته أبداً، ولم يخطّط أبداً لشيء كهذا. ورغم ذلك، كان يعي مقدَّماً هذه السطوة، أو تلك الأهمية التي يتم الإعلان عنها في اللحظة نفسها التي يصوّب فيها نظرات عينيه، كلا، نظرة عينيه على المرأة، لكن هذا الوعي لم يكن متسلّطاً، بل بالأحرى متوجّساً. الطريقة التي كان يتجنّب بها أطول فترة ممكنة إلقاء نظرة كاملة على المرأة قد يخلط المرء بينها وبين الخجل أو الجبن، وقد كان ذلك -هكذا حكى لي- شيئاً كالخجل، حقاً، لكنّه لم يكن، قطّ، جبناً، مطلقاً! عينه عليها، هذا معناه: لم يعد ثمّة مهرب، نهائياً، لكليهما. كان الأمر يتعدّى مجرد اللحظة، أو الليلة.

منذ زمن بعيد، وصف فيلسوفٌ شهوةَ دون جوان -التي تعي بها المرأة على نحو حتمي- أنها لا تُقاوَم، بل إنها «منتصرة». لكن الحكاية، كما حكاها لي بنفسه، لم يكن لها أيّ علاقة بالانتصار أو الشهوة، على الأقل انتصار دون جوان وشهوته. على العكس، كان الأمر، بالأحرى، هو أنه بنظرته -وليس بمنظره الذي لم يكن لافتاً على أيّ نحوٍ من الأنحاء- يُطلق شهوة المرأة من إسارها. كانت نظرةً تحيط بما هو أكثر من المرأة وحدها، وتفعل ذلك على نحو مختلف، نظرة تتعدّاها، وتسمح لها بأن تكون ذاتها، ولذلك كانت تعرف أنه يقصدها ويكرمها؛ كانت نظرة فاعلة. لقد تدلّلت بما يكفي أثناء سيرها في الشارع، وأثناء وقوفها وجلوسها على أرصفة محطات

السكك الحديدية ومحطات الباصات: آن أخيراً أوان الجدّ، أو قد يحين أوان الجدّ، وهذا ما تشعر به كانعتاق.

عبْرَ عين دون جوان المصوّبة عليها، وعلى الفضاء من حولها، تعي تلك المرأة وحدتها حتى اللحظة، وأن عليها أن تنهيها فوراً. (خلال الأسبوع كلّه لم تصادفه سوى نساء يشعرن بهذه الوحدة). وعي الوحدة – طاقة الشهوة، الصافية والقاهرة. يتجلّى هذا لدى المرأة في صورة طلبٍ صامت وذي سطوة في الآن نفسه، لأنه حقاً طلب «منتصر»، بل مطالبة؛ وهو شيء سيظلّ بالتأكيد دون استجابة لدى أيّ رجل، مهما كان وحيداً. إلى ذلك فإن المرأة، ومن خلال فعل المطالبة، تزداد جمالاً، حتى لو كانت هي أساساً جميلة الجميلات، إلى أن تصل إلى درجة «ليس في الإمكان أجمل من ذلك»، في حين أن تعبيراً كهذا بالنسبة إلى الرجل...

ترك دون جوان الحكاية مفتوحة، ولم يذكر، لا إجمالاً ولا تفصيلاً، كيف انتهت قصة العروس من القرية القوقازية. ولم أُرِد أنا أن أعرف أيّ تفاصيل، لا سيما المتعلّقة بالموضوع. أما النهاية فقد اتضحت لي من الجمل الأولى التي نطق بها. بطريقته، حكى لي خصوصاً الأجزاء التي كان فيها فاعلاً، أما الأفعال فكانت بصورة رئيسية بالنفي، أو أنه تجاوزها بسرعة كشيء لا يستحق أن يتحدّث المرء عنه. وهكذا كان يكفيه أن يقول إنه لم يسر في اتجاه المرأة الشابّة، عندما وقف على باب القاعة. وإنه لم يعتلِها أو ما أشبه. وإنهما لم يكونا معاً في غرفة جانبية أو لم يختفيا في الهواء الطلق. وإنهما لم يتبادلا كلمة واحدة، لا «هيّا!»، أو «الآن!»، ولا «لقد آن الأوان». مع أن وصالهما كان بلا حياء ولا خجل، وصالاً بديهياً، في الهواء الطلق وفي وضح النهار، ووسط كلّ المدعوّين الآخرين للاحتفال. لم ينظر إليهما أحد، فضلاً عن أن يلاحظ أو يرى شيئاً. تسبّب ذلك النظام الزمني الآخر الذي تولّد عبر تلاحمهما، أياً كانت الطريقة التي حدث بها ذلك، في أنهما لم يعودا مرئيّين للآخرين، ربما كالأجساد التي تتحرك عابرة، دون أن تكون العين سريعة أو بطيئة على نحو كافٍ لكي تعرف أن الأجساد تتحرك.

ومع ذلك حكى لي دون جوان بعض الأشياء التي ظلت تشغل باله بعد مرور أسبوع على ذلك اليوم، سواء بشكل واضح أو خفيّ. من تلقاء نفسه راح يقصّ عليّ فعلاً واحداً على الأقل، وإنْ كان فعلاً ضئيلاً وتافهاً: بعد أن صنع أخيراً نصف دائرة ليصل إلى العروس، وباح لها بمكنون نفسه عن بعد، وذلك، كما هو متوقع، عبر نظرته، خطا عدة خطوات إلى الوراء، وهكذا صنع مجالاً مغناطيسياً استسلمت له المرأة الشابة بسرعة وكأنها تستسلم لشيء بديهي. ربما يكون جديراً بالملاحظة أن دون جوان كان يتحدّث بسرعة عن الأفعال، هذا إذا وردت في حكايته أساساً، في حين أنه كان، مرة بعد أخرى، يستفيض إلى حدٍّ كبير عندما يتكلّم عن التفاعلات النفسية والمصاعب.

تيسَّر تقاربهما عبر واقعة كادت تنتهي بوفاة إنسان. وقفت شوكة سمكة في حلق أحد الضيوف وكاد يختنق. ساد الهرج والمرج في القاعة الكبيرة، أثناء الصرخات الحادة الصادرة عن الشخص الذي قفز من مكانه، وشيئاً فشيئاً تحوّلت تلك الصرخات إلى عواء وبكاء مستعطف، ثم إلى لهاث، وأخيراً راح يضرب بيديه وقدميه في الهواء صامتاً. في تلك الأثناء وقع الشخص، وراح يتمرّغ على أرضية القاعة طولاً وعرضاً، ثم احمرّ وجهه بشدّة حتى كاد يقارب سواد سمكة الحبّار. تداخلت النصائح الصادرة من الواقفين حوله، الذين أخذوا يصرخون وهم منحنون فوقه. غير أن المختنق لم يعد يسمع شيئاً، وقِطع الخبز التي حُشي بها فمه لكي يبتلعها مع الشوكة، بصقها على الفور متشنّجاً. نظرة واحدة جعلته يستعيد وعيه، وبعد النظرة راح طيلة الوقت ينظر متضرّعاً. كان بإمكان أي شخص أن يفعل ذلك، بالمناسبة، لم يتطلب الأمر قدراتٍ خاصةً أو تدريباً. طوال تلك اللحظة أصبح هادئاً تماماً، وكان ذلك كافياً لمساعدته. خبطوه على ظهره ناحية القفص الصدري، إلى آخره، وهكذا سحب أحدهم الشوكة، أو ذلك الشيء، من حلقه، إلى آخره.

بدا أن الحياة وُهبت مرة ثانية ليس لهذا الإنسان وحده، بل لكل الموجودين في القاعة. مع الشخص الناجي جلس الآخرون وهم يئنّون على النحو نفسه، ويستردّون

أنفاسهم المقطوعة، إلى آخره. كان الموت قد أصبح فجأة سيّد المكان، إذ شعر به كلّ شخصٍ من الحاضرين داخله، في أعمق أعماقه، لم يشعروا به يتسلّل إليهم، بل ينفجر داخلهم، ولم يبقَ أحدٌ بمعزل عن الشعور بأن انفجار الموت –مهما كان مهتزّاً– قد عزّز الشعور بالحياة على نحو خاص، وإلى آخر مداه، حتى لو كان هذا الشعور مهتزّاً. أيّ رقص انطلق الآن فجأة! تجمّع للرقص أيضاً أولئك الذين لم يرقصوا في حياتهم أبداً، أو لم يرقصوا منذ أمد بعيد. انطلقوا يرقصون، رقصاً ليس وحشياً ولا محموماً، على الأقل في البداية. كما تجاذب أطراف الحديث أيضاً أولئك الضيوف الذين جاؤوا مصادفة حسب التقاليد القوقازية السائدة في الأعراس، وكذلك أعضاء العشيرة الذين كانوا لوقت طويل أعداءً، وتوافق مع ذلك التكاثرُ الفجائي للنبيذ على الموائد، والذي كان يأتي في عدة زجاجات دفعة واحدة، حتى إلى أصغر الموائد، وكما هي العادة في جورجيا. هنا وهناك كان المرء يرى طفلاً، دون نبيذ، يقبّل ويعانق أباه أو أمّه بحرارة، وكان واضحاً أن لا طفل من هؤلاء قد احتضن يوماً والديه، ولو بصورة عابرة.

دون جوان والمرأة الشابة، في تلك الأثناء كان كلٌّ منهما يقف أمام الآخر وسط حالة الاضطراب العام، وقد توقفا عن التنفس منذ برهة طويلة. شيء آخر كان يتنفس مكانهما. عندما انتهى وقتهما، وفي البهاء الأخير الكامل، الذي كان في الوقت نفسه غياباً وتقصيراً، ضئيلاً وساحقاً، وفي الوقت ذاته –في ما يتعلّق بدون جوان– كان يعني موافقة على التقصير، ضحكا، ثم انفصل أحدهما عن الآخر، وانصرفا في اللحظة نفسها، بالحركات والخطوات نفسها، وكأن حركات الآخر انعكاس في المرآة لحركات الأول. وبمشيته على مسافة أمامها، أوصل دون جوان العروسَ إلى العريس أمام المائدة الطويلة ثانية. ما أثار استغرابه في طريقه إلى هناك –وهو الرجل المحنّك ذو الخبرات السابقة- هو استمرار ذلك البريق والضحكة الصامتة. لمعت الأرضية الخشبية تحت قدميه. وضحكت تفاحات العام السابق ولمعت على أحد الأطباق الكبيرة، رغم أنها في الحقيقة متغضّنة وباهتة. حتى العناكب والحصادات على طلاء

القاعة المعبَّقة بالدخان كان لها بريق على نحو ما. وفي الخارج أمام النوافذ: يا لها من سماء! كما أنه لم يرَ ثلوجاً بهذا النقاء منذ فترة طويلة. حتى حفيف الرياح كان في أذنه جذّاباً، وكأنه يرافق الأكورديون داخل الصالة، الآلة الوحيدة التي كانت تعزف في تلك اللحظة، بصوت خافت غير مسموع تقريباً. لم تكن تعزف أغنية شعبية أو شائعة، بل نغمات من «الناي السحري» – تنويعات على الأكورديون على «آريا» من الأوبرا، ومرة أخرى، لم يسمع دون جوان منذ أمدٍ بعيد شيئاً بالغ التأثير كهذا. تصافحا، وتشابكت اليدان وكأن كلاً منهما يودّع الآخر لحياةٍ كاملة. بحماسة افترق عنها: فردوس الوداع.

لكنه عندما استدار صوبَ المرأة، كان يعلم أنها لا تشاطره موقفه من الغياب والحرمان. نظرتها كانت نظرة الغضب الأسود، ليس هو المقصود تحديداً، النظرة عامة، والغضب مبدئي. لا يمكن أن يكون هذا الذي حدث لتوّه بينهما هو كلّ شيء. لا يجوز أن يكون كلّ شيء. في ما يتعلّق بها، بالمرأة، لم يكن الوقت قد انتهى أبداً، ولن ينتهي أبداً. وهو، دون جوان، يعرف ذلك أيضاً، يعرف أن عليه أن ينصرف عنها في هذه اللحظة –نعم، لم يُرد الهرب، كان يمانع– لكن لا بدّ. أعادها إلى رجلها، وهو الذي كان ينظر إليه من بعيد كما ينظر الإنسان إلى صديقٍ عزيز للغاية، مثله أيضاً، فعندما وعى وجوده أخيراً، أحسّ تجاهه بمشاعر صداقة مخلصة - ثم ولّى فارّاً.

هكذا حدث ذلك. غير أن فرار دون جوان تصادف مع فرار خادمه. كان فرار الأخير، بخلاف فراره هو، لافتاً للأنظار؛ فقد فعل خلال الهرب كل ما يمكن فعله. لم يتتبّع أحدٌ هروب دون جوان سوى المرأة المهجورة، تابعته بعينيها فحسب، وهو يعتقد أنه في ما بعد -على مبعدة عدة أميال، «بعيداً عن مجال إطلاق النار»- سمعها وهي تجزّ على أسنانها، وتبصق، وسمع خصوصاً تنهّداتها. (لم يتنهّد دون جوان –وهو الذي يتنهّد على الدوام– من أجل امرأة أبداً؛ من المستبعد تماماً أن يفعل ذلك أمامها، هذا أمر غير لائق، ولو فعل، لأهان المرأة، وأهان نفسه). أما الخادم فقد فرَّ أمام أعين الجميع، ولاحقه ولاحق سيده –الذي كان يجلس منتظراً في

السيارة- كلّ المدعوّين في العرس الذين كانوا، على نحوٍ من الأنحاء، يستطيعون الحركة. على نحو كلاسيكي انهالت الحجارة خلف السيارة على التراب (دون أن يتصاعد في الهواء)، وتشكّلت فرقة تكاد تكون احترافية راحت تطاردهما (لكنها توقفت فجأة عند حدود القرية، وبالضبط هناك، وكأن تلك الحدود تكون خطاً فاصلاً تنتهي معه سلطة الملاحقة، كما هو الحال بالنسبة إلى الحدود بين الولايات المتحدة الأميركية).

أضيفت إلى الخدوش القديمة في وجه الخادم أخرى طازجة، وبعضها سيظلّ دامياً فترة طويلة. قاد السيارة من دون المعطف الاحتفالي، أما القميص الأبيض فكان ممزّقاً. تواصلت الخدوش حتى أسفل ظهره؛ الشفة السفلى متورّمة، وفي المنتصف جلطةٌ دموية كبيرة خلّفتها عضّة، آثار الأسنان واضحة في اللحم. استعاد مقدرته على الكلام قبل تبليسي بقليل. في إثر الارتياع الذي ساد بشأن الضيف الذي راح يتمرّغ على الأرض مصارعاً الموت، سار هو مع القبيحة إلى أحد الأركان، دون أن يتبادلا كلمة، وكأنهما متواعدان، ثم سقط أحدهما على الآخر. في الحقيقة كانت هي التي جذبت رفيقَ رحلة دون جوان، وفي حجرة شبيهة بالحجرة التي توضع فيها أدوات التنظيف، انهالت فوقه، إلى آخره. غير أنه لم ينكر قطّ أنه من ناحيته كان قد وضع عينيه على المرأة أيضاً. لم تكن قبيحة في عينيه مطلقاً، هكذا شرح لدون جوان، منذ اللحظة الأولى، وحتى دون تأثير الأجواء الاحتفالية أو النبيذ أو الإثارة. عموماً، كان يُعجَب دائماً بأولئك اللاتي يعتبرن غير جميلات. إذا جاءت امرأة بندبات الجدري، فعلى الفور كان يشعر بما يشبه التأثر. على الفور تنتابه رغبة الحصول على الندبات ذاتها. كان يبدو مضطرباً، كلما رأى امرأة توصف عادة بأنها شبه منفّرة، يضطرب من

التأثر ومن القوة التي تدفعه لغزوها. في كل مرة يحمرّ وجهه، بالمعنى الحرفي للكلمة، عندما تظهر امرأة توافق هواه، ومع مرور الوقت خلال الأسبوع كان دون جوان يستطيع التنبؤ بذلك، يحمرّ وجهه ثم ينظر جانباً، مضطرباً في البداية فحسب، ثم كالذاهل عما حوله. أنْ تذهب نساء كهؤلاء بعقله، هكذا قال الخادم، لا يرجع إلى خلل في ذوقه، فضلاً عن شذوذ. يقع أيضاً في مجال اختصاصه أولئك اللائي قد يظهرن في عيون شخص آخر مشوّهات، وكذلك الذابلات قليلاً، والجالسات في الزوايا والأركان، والسائرات بجوار الأسوار والجدران. معهن كان يحاول خوض المغامرة على الفور، ولا يمكن أن نتحدّث عن الحب هنا.

باغته عابرون مع «القبيحة» خلال وجودهما في حجرة أدوات التنظيف أو غرفة كيّ الملابس، ما بين المكانس أو على حامل الكيّ، عابرون كانوا يحاولون منع ما يشبه جريمة قتل، سواء مع سبق الإصرار أو من دونه. رغبت القرية القوقازية كلّها في عقابه على ما فعله، وهو ما يعود إلى وضع الفتاة في القرية: كان يُنظر إليها على أنها بلهاء، والبلهاوات لا يجوز أن يمسّهن أحد، كنّ محرّمات تماماً؛ وهو كشخص من المنطقة كان عليه أن يعلم هذا. أما هو فقد أكّد أمام دون جوان لاحقاً أنه كان يعرف حقاً أن ذلك محرّم، لكنه من جانب آخر كان يعلم أن شريكته ليست «مختلّة». لقد أدرك ذلك قبلها، أثناء الساعات الماضية. إن شخصاً بمثل هاتين العينين لا يمكن أن يكون سوى شخص طبيعي، بل لا بدّ أن يكون على مستوى الحدث. ويا لهما من يدين بضّتين لتلك التي يزعمون أنها عبيطة!

في مساء اليوم التالي هبط دون جوان والآخر في دمشق. هكذا روى لي بعد ذلك بأسبوع. غنيٌّ عن القول إنه لم يكن مسموحاً لي بالسؤال عن كيفية وصوله إلى هناك. يكفي أن ذلك بدا لي ممكناً. ولم أسأل أيضاً أين نزل دون جوان في ليلته بدمشق، وأين نزل خادمه. تُرك هذا لمخيّلتي، مثلما فعل في المحطات التالية أيضاً. لكنني لم أكن بحاجة إلى الخيال، بل إنه كان سيزعجني خلال الإصغاء إليه، كما أنني لم أكن بحاجة إلى تقرير عن الطقس في سوريا: من الواضح أن نسائم مايو كانت

هناك أيضاً مشبعة بزغب زهور أشجار الحور. رأيته خلال بقية الحكاية وهو يتدحرج على الأرض التي تختلط صفرتها بحمرة، وكذلك وهو ينطلق مع الجموع بجوار الأسوار الصفراء المحمرة، في حين بدا أن الأشياء المادية في موكبه قد بدأت تفقد ثقلها.

كان دون جوان متأكداً من أنه سيقابل امرأة في مساء وصوله إلى دمشق. الفترة التالية –وطوال مدة لا يمكن تقديرها– كانت فترة نسائية، امرأة تسلّمه لأخرى. ولأنه استجاب للعروس القوقازية –لم يقل «استجابا معاً»– فقد لفت أنظار أولئك النساء المميّزات اللائي تدور حولهن حكايته الآن. لم ينبع ذلك من رائحة ما، مثلما كان خادمه، الذي أصبح الآن نديمه، يريد أن يجعلنا نصدّق خلال خطبته المستفيضة عن عالم النساء (المزيد عن ذلك في ما بعد): «إذا اقترب رجل يمكن استمالته، فبإمكانهن شمّ ذلك على بعد سبعة تلال». استُقبِل كشخص لم يعد أحد ينتظره، ويعود ذلك إلى استعداده الجديد تماماً، كلا، بل المستيقظ لأول مرة، ذلك الاستعداد الذي كان يثير لدى أولئك النساء شيئاً مختلفاً تماماً عن أيّ رغبة في المغامرة، واقترن بذلك أنه كان متاحاً لهن، كما هو واضح، إضافة إلى تحرُّره من الهموم، أو مرحه، وهو مرح تنتقل عدواه في الحال إلى المرأة المعنية في ذلك اليوم، مرح يكاد يجعلها وقحة، أو بالأحرى جَسوراً.

أما أكثر الأشياء التي كان لها تأثير مباشر خلال الأسبوع كله، فهي التزامنية التي كانت واضحة على الفور بين دون جوان وبينها هي، الأخرى، التي للوهلة الأولى لم تعد تشعر بنفسها كأخرى، كما أنها لم تعد تشعر به، وهو الرجل الغريب، كآخر. إذا وثقت المرأة بشيء، فبهذه التزامنية. كان من الموثوق به أن كلاً منهما، أثناء الوقائع التالية، سيكون متزامناً مع الآخر، أو سيتصرف دائماً بشكل متزامن. حركاتها والتفاتاتها ستكون مثله تماماً. سيكون لهما، هي وهو، الإحساس الزمني المتوافق

توافقاً تاماً. في شخص دون جوان -لو خطر على بالها اسمٌ له، لما كان هذا الاسم أبداً- قابلت المرأة معاصرها. أما ما لم تكن المرأة تعرفه، ولم تكن أيضاً بحاجة إلى معرفته، فهو أنه متاح لها، كما أنه متحرّر من الهموم، وهما صفتان كان دون جوان يوحي بهما في عينيها. أما النبع الأساسي لذلك فهو حزنه المقيم. لم تمضِ سنوات حداده بعد. ومع النساء الآن غدت الحسرة على فقدان أقرب الناس إليه أكثر حضوراً من أي وقت مضى.

حكى لي دون جوان عن لقائه بامرأة دمشق أقلّ ممّا حكى لي عن سابقتها في أرض القوقاز، وعن النساء التاليات أقلّ وأقلّ. لم يروِ لي إلا هذا تحديداً: حدث ذلك في قاعة الدراويش الراقصين في الجامع الكبير، الذي لم يتذكّر اسمه -كان بإمكاني مساعدته، غير أني خجلت من أن يرافق صوتي صوته، صوت الراوي، إلى ذلك فالاسم زائد عن الحاجة بالنسبة إلى القصة؛ يكفي الجامع الكبير في دمشق، كما يكفي أن نقول بالنسبة إلى النساء اللاحقات: عند القلعة في جيب سبتة في شمال إفريقيا- على جسر القوارب في لسان مائي، «فيورد»، يخترق الجبال في النرويج - إلى آخره.

جلس دون جوان في آخر صفّ في حفلٍ يرقص فيه الدراويش على أنغام الموسيقا. وسرعان ما لم يعد يسمع آلات الطبل والعود والفلوت (أو الناي) كحفل، ولا حتى كأنغام موسيقية. لم يعد يسمع أيّ شيء، لم يعد سوى متفرج على الراقصين في تنانيرهم الواسعة الشبيهة بالنواقيس، وبطرابيشهم الشبيهة بالأقماع الطويلة فوق الرؤوس. لم تكن الرقصة سوى استدارة للأجساد حول نفسها، استدارة بطيئة في المعتاد، بل إنها كانت في مرحلة زيادة السرعة تترك انطباعاً بالتباطؤ، انطباعاً بالبطء العظيم الطاغي، ومعها التنانير الطائرة للدائرين حول أنفسهم، والعيون ذات النظرات الثابتة والمستقيمة في اتجاه القاعة أو أياً كان اتجاهها، الأذرع مفرودة، كأن إحدى اليدين تشير إلى الأرض، في حين أن الأخرى تنبسط كأنها صحن في اتجاه

السماء. وَجْد؟ لا يمكن تخيُّل شيء أكثر هدوءاً من هؤلاء الدراويش الذين يدورون حول أنفسهم دوراناً سريعاً، حتى يكادوا يصبحون أحياناً غير مرئيين، كما لا يوجد أيضاً ما هو أكثر تأملاً للذات. قرب نهاية الاحتفال -وقد كان احتفالاً أكثر منه عرضاً- تسلّم درويشٌ صغير السن جداً الدوران حول النفس، من الدراويش الشيوخ. كان لا يزال مراهقاً. راح يدور خفيفاً وجاداً جدية بالغة في آن واحد، وعلى مستوى النظر كان واضحاً أن ثمة شيئاً بعيداً، شيئاً ليس فارغاً بأيّ حالٍ من الأحوال. وفي النهاية أيضاً، عندما توقف، لا ابتسامة، ولا حتى أثر لابتسامة، أقصى ما يمكن رؤيته هو انبساط ملامح الوجه.

ومرة أخرى لاحظ دون جوان امرأةً بين الحاضرين تنظر إليه نظرة معيّنة. كانت، وقد جلست في صفّ من الصفوف الأمامية، تدير رأسها فوق الكتفين، بما يشبه الإيقاع، وذلك بعد أن وصلت نغمات الآلات الموسيقية إلى نهايتها، وكذلك تأرجح الدراويش. ومرة أخرى لم يصف لي المرأة -وبطبيعة الحال كانت «جميلة جمالاً لا يوصف»-، وعلى سبيل التنويع حكى لي أنه للوهلة الأولى اعتقد أنها راهبة، بسبب غطاء رأسها وثوبها الداكن المقفول حتى الرقبة، ثم لاحظ أن ثياب معظم النساء الأخريات في القاعة كانت شبيهة بثوبها، وحتى ملابس نصف عدد الأطفال الحاضرين.

تكرّرت أشياء كثيرة، وقعت في ما بعد، تشبه ما حدث مع المرأة الأولى، امرأة اليوم السابق في بلد آخر، تكرّرت بالضبط تماماً، بالصورة والصوت (رغم أنه لم يعد بعد مرور أسبوعٍ صوتٌ واحد، أو رنين صوت، أو منطوق كلمة صدرت عنهما، حاضراً في ذهنه، ذهن دون جوان، لكن ذهنه حفظ الصور، صورتها هي، وحدها، وكذلك، وبشكل موجز، صور الأشياء العابرة). لم يزعجه أن معظم الأشياء تكرّرت، وتكررت أيضاً مع نساء الأيام التالية في الأسبوع، كما لم يجعله ذلك يتردّد، فضلاً عن أن يفزع

أو يخاف – انتابه الفزع للحظةٍ في المرة الأولى فقط، عندما لم يكن الأمر يتعلّق بالتكرار. اكتسب التكرار بالأحرى قوته الخاصة، التي كانت تزداد بمرور الوقت، واستجاب هو له كشيء بديهي، نعم كقانون، إذا لم نقل كفرض. كان عليه أن يفعل الشيء نفسه مع المرأة الآن، مثلما فعل مع امرأة اليوم السابق. لم يمتلئ قلبه بالسعادة الغامرة إلا عبر التكرار.

ليس معنى ذلك غياب التنويعات. في كل مرة كانت ثمة تنويعات، ربما أيضاً شيء واحد مختلف، شيء ضئيل للغاية. عبر التنويع تحقَّق الفرض وأصبح في الوقت ذاته جزءاً من اللعبة، أصبح فرضاً وتحرّراً. أو كما قال خادمه في ما بعد: التنويعات كانت كالتوابل.

حتى النساء المعنيّات، اللائي يدفعن المرء إلى الحكي، والحكي عنهن، هؤلاء الأشخاص والكائنات كانوا، في ملامحهم الأساسية، يظهرون يوماً بعد يوم كتكرار. كلّهن كنّ يعشن حتى الآن في وحدةٍ مشينة، لكنّهنّ لم يشعرن بها كفضيحة، بل لم يشعرن بها عموماً، إلا الآن، في هذه اللحظة. كلّهنّ، على اختلاف بلادهن، كنّ يعِشن في تلك البلاد، ومع ذلك كنّ غريباتٍ على نحو لافت. وبالمناسبة، كلهن لا يلفتن الأنظار في شيء، وكأنهن بلا صفات، ثم أصبحن جميلات، جمالاً لا يوصف، كما انفتحت عيونهن، وغدا شكلهن أخيراً يسُرّ النظر. كان ينبعث منهن كلهن شيء كئيب، بل مُهدِّد، لكنه لم يكن يبعث على الخوف إلا بشكل عابر، على الأقل بالنسبة إليه، إلى دون جوان. كلهن بلا عمر، أو يبدو عليهن –سواء كنّ شابّات أو أقلّ شباباً– السموّ فوق العمر. كلهن كنّ –أياً كان مكان وجودهن– يتطلّعن على الدوام إلى ندٍّ لهن، ويمتلكن حضور البديهة لكي يتصرّفن «في التوّ». كلّهن يعشن، وبشكل مُلِحّ، وكأنهن يقفن منذ الأزل على عتبة الموت والجنون، على عتبة الهروب، على عتبة القتل. كلّهنّ قد يتحوّلن إلى مصدر للخطر. وكلّهنّ، حتى إذا لم يكن هناك سبب للاحتفال، لا

عرس ولا رقصة، يتحرّكن، حتى في أكثر المواقف عاديةً، بهالة تحيط بهن، أو بالأحرى كان يحيط بهنّ عطر الاحتفال – في ما بعد كان يراهنّ، جميعاً، في ثياب بيضاء. لم تتحدّث واحدة منهن، هذا إذا فتحن الفم أساساً، عن مرضى أو محتضرين.

ثمة تكرار آخر في كلّ حالة، وهي أن الظروف الخارجية التي جمعت بين المرأة ودون جوان كانت هي أيضاً نوعاً من العتبة. ما أحدثته شوكة السمكة في القرية القوقازية، أحدثته عاصفة رملية في دمشق، وربما أحدثته في سبتة الحربُ التي أُعلن عنها في اليوم التالي، وأحدثه في اليوم الخامس من أسبوع الحكي المَدُّ الآتي من بحر الشمال، والذي اجتاح الكثبان الرملية الهولندية. (فقط امرأة اليوم الذي سبق ظهور دون جوان في بور رويال لم تكن بحاجة إلى مثل تلك العتبات الخارجية لبدء المباراة الأخيرة – كان يكفي التعب الجذري الذي سيطر على كليهما).

التنويعة الدمشقية، مثلما حكاها لي دون جوان، وابتداء من تلك اللحظة، عندما يدور الأمر حوله وحول نساء الأسبوع، كان يحكي عن تنويعات فحسب، وكل واحدة منهن لها بريق في العينين: إذا كانت الأرضية الخشبية قد أصدرت طقطقةً تحت المرأة في جورجيا، فإن الرمل هنا كان يصدر صريراً. وبدلاً من أن ينتظر المرأة وسط الجموع، انتظرها جانباً، بعيداً، خلف الجامع، في منطقة بها منازل مهدّمة، في أرض محرّمة مؤقتاً. كان متأكداً منذ البداية من أنها ستقف هناك، حتى وإنْ لم يدلّها على الاتجاه خلال سيره القهقرى – في تلك الفترة كانت النساء اللائي حكى لي عنهن، قد اصطفين مناطق كهذه مجالاً خاصاً بهنّ، الأماكن النائية كانت منطقتهن الخاصة، الفارق هو أنهن لم يكنّ يرِدن الصيد أو البحث، في المعتاد لم يكنّ يرِدن سوى التمشية وحدهن.

انتظر طويلاً. في اليوم السابق كانت الشمس تضيء الدنيا، أما الآن فقد كان الليل الحالك على الأبواب. بدا هلال القمر أكثر امتلاء قليلاً من ذلك الهلال الرقيق كَشَعْرةٍ، الذي رافقهما خلال الانطلاق من القوقاز. ومن البديهي أن دون جوان وافقه تماماً أن تغيّر المرأة رأيها. ما ينتظره كان اختباراً، ولم يكن يعلم على الإطلاق كنهه. لم يكن يعلم مادة الاختبار، ولم يُسمح له أيضاً بمعرفته، ولن يكون الاختبار صعباً فحسب؛ إنه يتطلب منه بذل قصارى جهده (حتى وإن اتضح أنه سهلٌ ويسير بالنسبة إليه). غير مسموح له بأن يتجنّبها. كان عليه أن يصبر حتى تقف المرأة. ولم يكن لائقاً أن يهرب، ليس في تلك اللحظة؛ كما أنها ستعثر عليه، سواء هنا أو في مكان آخر. لم يكن هناك في تلك الساعة مفرّ من المرأة.

ظهرتْ عندما احتجب القمر خلف العاصفة الرملية التي اجتاحت الأفق. لم يسبق وصولها وقعُ خطوات. كانت تقف ببساطة هناك. وقف دون جوان في الظلام طويلاً إلى درجة أن أيَّ ضوء، حتى وإن كان خافتاً، سيبهر عينيه، أما هي فكانت بالطبع تتقدّم في اتجاهه وسط الظلام، عبر كومة من الطوب المتناثر، دون أيّ مصباح. لم يسمع صوت تنفسها أيضاً، مع أن من الواضح أنها كانت تركض. كم كانت أولئك النسوة يستطعن التحرك بهدوء! وما أسرع دخولهن المشهد! -في سرعة الضوء كنّ هناك- وكم كنّ يتحركن خِفيةً من البداية حتى النهاية (كلا، بلا نهاية)، دون أيّ سريّة أو تستّر!

السير معاً جيئةً وذهاباً في حماية أطلال جدار كانت الرياح الرملية تصطدم به مصدرةً وشيشاً. بعد ذلك بأسبوع، حكى دون جوان عن الأسياخ الحديدية البارزة أعلى الجدار، وعن الموسيقا البديعة التي أحدثتها العاصفة أثناء اختراقها الأسلاك والأسياخ والمواسير المتشابكة فوق رأسيهما. لم يكن إيقاع الهواء العاصف وذرات الرمال المرتطمة بالحديد منتظماً، على الأقل لوهلة. للحظات كان يتنامى، ثم يهدأ

قليلاً، ليتنامى بعد ذلك بقوة أكبر، ثم يضعف عزيف الريح ليصبح أنيناً، ثم مجرّد هفيف، لتنطلق الريح بعد ذلك أو تهبّ بقوة أكبر، إلى آخره، دون أن يخفّ طبعاً ولو لوهلة واحدة، أو يتلاشى كليةً. وبذلك صدر رنينٌ دائم من الأسياخ الحديدية المنتصبة في وجه العاصفة، وخلال هبوب الريح المنتظم، لم يكن يُسمع سوى العويل والزمجرة والهدير، صوتٌ رتيب تماماً، وهكذا تكوّنت نغمةٌ منتظمة، ولكن على نحو مختلف تماماً. نغمة متناسقة. صحيح أن إيقاع النغمة كان مختلف الطول، وأن النغمات العالية والمنخفضة، وربما كانت السلالم الموسيقية في إجمالها، سواء في أعلاها أو في أسفلها، تحتاج إلى درجة إضافية. ولكن الانتقال بين الدرجات العالية غير المسموعة تقريباً، وتلك المنخفضة المسموعة بمشقّة، والتحوّل من الإيقاعات القصيرة إلى الطويلة، وبين العالي والخفيض، لم يحدث أبداً فجأة، أو دفعة واحدة، أو مصادفةً، أو عنوة، بل مبدئياً على نحو هارموني، ومع مرور الوقت –تعني كلمة «وقت» في عدد ليس بالقليل من اللغات أيضاً «إيقاع»– تصبح نغمة تعزفها الأسلاك المهتزّة والأسياخ شبه الطليقة وهي تقرع بعضها بعضاً، وتعزفها بصورة خاصة منظومة المواسير التي كانت تقف مفتوحة من الأمام ومن الخلف في وجه العاصفة، وفي حين كانت الأسلاك والأسياخ تعطي الإيقاع، فمن الممكن اعتبار المنظومة قائدة النغمة. ويا لها من نغمة! راح دون جوان يدندن ويتغنّى بها أمامي، في البداية بصوت واهٍ أخذَ يقوى شيئاً فشيئاً، وأثناء ذلك نهض من كرسي الحكي، ثم راح يذرع حديقة «بور رويال» ذهاباً وجيئة بذراعين ممدودتين، وكنت متأكداً –أنا الذي لم أعد منذ زمن طويل متأكداً من أي شيء– من أنه لو تغنّى بهذه النغمة أمام الجمهور، فسوف تغزو الكرة الأرضية على نحوٍ لم تفعله أيّ مقطوعة موسيقية أخرى.

وفي النهاية ازدادت شدة العاصفة الرملية الدمشقية، لكنها أصبحت رتيبة. بعد النغمات السابقة التي كانت تعلو وتهبط، والصادرة عن الشِّباك الحديدية، لم يسمع

المرء صخب العاصفة الآن كعويلٍ رتيب أو طنين -رغم أنها كانت ذلك في الوقت ذاته، وكان يصحبها دويّ-، بل كرنينٍ ختاميّ عظيم. في تلك الأثناء أقعى كلاهما، المرأة والرجل، خلف جزء من الجدار، وأصاخا السمع. وسط ذلك كاد قلب دون جوان ينفطر حزناً. لكنّه، الحزن تحديداً، هو الذي منحه القوة من جديد، وجعله يتجاوز مشاعره. يتسبّب الحزن في السموّ فوق النفس. ولحضوره أثر المعجزات. في الليلة العاصفة المظلمة تولّدت الألوان. وسط أوراق شجرة كرز شبه يابسة في أرض الأنقاض، سطع في تلك اللحظة على الثنائي حمرة الكرز، هكذا، دون أيّ مصدر للضوء. ازرقاق في مركز السماء السوداء. اخضرار قويّ في الأرض التي صرّت تحتهم. في العالم المذعور كان دون جوان يشعر بأنه في مكانه. هذا هو عالمه، إذا كان له عالم. وهناك تقابل معها، مع المرأة. التقيا في العالم المذعور.

لغةٌ أخرى كانت تعبّر عن صيغةٍ معيّنة من الزمن، أو من فترة زمنية، بعبارة: «لم يحدث في أيّ وقت أن»: «لم يحدث في أيّ وقت أنه ذهب من أ إلى ب». خلال حكايته عن الأيام السبعة في زمن نسائه، كان دون جوان يستخدم هذه الصياغة كثيراً جداً، ولكن بالطبع بمعنى مختلف في كلّ مرّة. لم يحدث في أي وقت، مثلاً، أن طلع النهار عليه وهو في القفر الدمشقي والمرأة بجانبه. لم يحدث في أي وقت أن تحوّلت العاصفة الرملية إلى رياح السَّحَر التي تهبّ بلا صوت، «من اليمن»، مثلما قالت المرأة بغتةً. وها هي ذي الديكة تصيح، ديكة المدينة، وكذلك ديكة الريف السوري. وها هي ذي الديوك الرومية تكاكي من كلّ مكان – كلا، لقد كانت تصيح طيلة الليل. ثم صاحت الطواويس – كلا، هي أيضاً ظلت تصيح طوال الليل. لم يحدث في أي وقت أن ارتفعت أصوات المؤذّنين إلى صلاة الفجر من مآذن المدينة، سواء كانت حقيقية، أو أصوات متقطّعة من أسطوانة، أو ذات وشيش صادر عن شريط تسجيل. وبدلاً من سُحب من الرمل سُحب من البنزين. وها هي ذي الخطوط التي تتركها الطائرات في الشمس، وها هي ذي طيور السنونو التي تبرق أثناء انحرافها فجأة، وها هي ذي التماعة بذور أشجار الحور ذات الزغب القطني في

الأعلى، والتي أطلقها الهواء في رقصات غجرية. أما ما راح يعوي الآن ويزأر، العويل الذي لم يبدأ الآن فحسب، لا يمكن، هنا عند العرب، أن يكون هذا خنزيراً في طريقه إلى المجزر، كان ذلك واضحاً في تلك الأثناء من النحيب والنشيج، لم يكن حيواناً مطلقاً، ولا إنساناً أيضاً، على كلّ حال ليس إنساناً كبيراً، شبّ عن الطوق، بلى، إنه إنسان بالغ هجره الربّ والعالم كلّه، يبكي كما لا يبكي سوى طفل، طفل بكى طيلة الليل على الأقل، وما زال يبكي حتى الآن دون توقف.

وحانت اللحظة التي اتفق فيها دون جوان والمرأة على العودة إلى الزمن المعهود. (عرف بعد ذلك بقليل أن ذلك لم ينطبق عليها تماماً، وهكذا لم يبقَ أمامه في ما بعد سوى الهروب). لم يفترقا على الفور. لقد سار معها حتى منزلها. أهدته قلادتها وبها كفّ «خمسة وخميسة». تناولا الفطور معاً، وشاركهما طفلها أيضاً الذي استيقظ. جلس الطفل إلى المائدة بجانب الشخص المجهول وكأن شيئاً لم يحدث. حضور دون جوان كان بالنسبة إليه شيئاً أكثر من بديهي. تهلّلت أساريره وكأنه يترقب مجيئه منذ فترة طويلة. هذا الغريب، سواء بقي أم لا، كان صديقاً. (حلَّ الطفل في دمشق محلّ عريس القوقاز).

نام خادمه في غرفة جانبية في المَضيَفَة. لم يردّ عندما طرق دون جوان الباب. لم يكن الباب موصداً، فدخل. ظلام دامس في الغرفة، درفتا النافذة مغلقتان بإحكام. وَهَج، من سيجارة، وفي تلك اللحظة، بجانبها، وهج سيجارة أخرى. عدا سحب الدخان ونفخه، مزدوجاً في كل مرة، لم يكن ثمة صوت، لفترة طويلة؛ إلى أن سار دون جوان على أطراف أصابعه إلى النافذة، بصوت خافت، وكأنه هو الخادم، والاثنان الراقدان في الفراش هما السيدة والسيد، ثم سحب الستائر، ودفع الدرفتين بأقصى قدرٍ من الهدوء. في تلك الأثناء ظلَّ الاثنان يسحبان الدخان من سيجارتيهما، دون أن يبدو عليهما أن ضوء النهار الفجائي قد خطف أبصارهما، وكأنهما في مشهدٍ ليلي في فيلم، متجاهلين في البداية وجود الشخص الثالث في الغرفة. صحيح أنه لم يتعمّد النظر

إليهما، وكانت عيناه موجّهة بالأحرى إلى الشارع الصباحي، لكن النظرة العابرة التي مرّت بالخادم والمرأة رسّخت في ذهنه صورة ليلية ما زالت حيّة حتى بعد مغادرته دمشق. على فكرة، قال لي عندئذٍ، عندما لا يثبّت المرء نظره على شيء، بل يمرّ عليه مرور الكرام، فإن ذلك الشيء ينطبع في الذهن لفترة بشكل أرسخ مما لو تعمّد المرء النظر إليه أو تأمّله. أياً كان الأمر: لم يتبقَّ في ذهنه من معشوقة خادمه سوى قبحها الذي كاد يقفز إلى عينيه قفزاً، أو تشوّهها من ندبات حَبّ الشباب والجدري أو الجذام، إلى جانب ابتسامة داعرة في غبطتها، في حين راح العاشق، الذي بدا وكأنه شُفي أثناء الليل من جراح العضّ والخربشة التي لحقت به في الأيام السابقة، يمسح بيده على شعر الفتاة وثدييها دون توقف، وخصوصاً على أنفها الطويل جداً والمقوّس بالطبع، وفي الوقت ذاته كان ينفخ دخانه بهدوء، بتعبيرٍ يمتزج فيه الغضب امتزاجاً تاماً مع الاستمتاع والرقة والاشمئزاز والضجر والاحتياج والشوق والشعور بالذنب (والشعور الأخير لم ينبع مطلقاً من ظهور سيده).

بعد أسبوع تبدّت لدون جوان -الذي شعر بنفسه هناك ثانية- الليلة ونصف النهار التالي في دمشق، في التفاصيل التالية: ثنائي بالأسفل في الشارع أمام المَضيَفة، المرأة، طاعنة في السن، تسير خلف الرجل الطاعن في السن أيضاً، تفصلهما مسافة كبيرة لا تنقص ولا تزيد، رغم أن المرأة كانت على ما يبدو تسرع الخطو، في حين كان الرجل السائر أمامها يبطئ خطواته. (ثنائي كهذا كان يتمشى في القرية القوقازية، ولكن بالعكس، الرجل هناك يسير خلف المرأة، وبمسافة كبيرة، وهي تسير بخُطاً وئيدة، بينما كان هو يحرّك ذراعيه وكأنه يجذّف، ويحرك قدميه مثل حصان يعدو). طائر يسرع في التنقّل مثل ضفدع من جزيرة صغيرة معشبة إلى الجزيرة التالية. وطفل عند النبع يتعثر في أحجار ويقع، ثم يحاول طويلاً طويلاً أن يكتم البكاء بالعضّ على شفتيه. لكن طبعاً...

في الطريق إلى جيب سبتة -باستعادة ما حدث يبدو ذلك أيضاً طريقاً أكثر منه رحلة- سيطر على دون جوان تثاؤب عظيم. لم يكن مبعثه التعب مثلاً، كتثاؤب الخادم الذي جلس خلفه بعدّة صفوف وكأنه مجرّد مسافر غريب لا علاقة له بسيده طوال فترات طويلة من الطريق المشترك. تثاؤب دون جوان من ذلك النوع الذي يصيب المرء عندما تفصله شعرةٌ عن خطرٍ داهم، ثم يفلت. هكذا يتثاءب المرء بعد ما يسمّى بالنجاة في اللحظة الأخيرة، عندما يجذبك أحدٌ من على شفا جرف ليعيدك إلى الأرض الثابتة قبل السقوط، أو كما يُذكر في إحدى نوادر الحرب غير المضحكة إطلاقاً، حيث لا يبقى للبطل من سيجارة أشعلها لتوّه وسط معمعة المعركة غير عقب العقب بين شفتيه - إلى هذه الدرجة من القرب مرّت رصاصة العدو أمام رأسه. كان تثاؤبا قوياً. الآن، لن تتواصل الحياة، أو حكايته، هكذا على أيّ نحو كان. عندما وصل إلى برّ الأمان، رأى دون جوان نفسه على وشك المغادرة، أكثر من أيّ وقت مضى. كان ذلك الأمان بالتأكيد أماناً مؤقتاً وقصير الأمد، فقد استطاع أن يستمتع به خلال رحلته في شمال إفريقيا، في حين أن أيّ نوع آخر من الأمان كان يولّد تأثيراً معاكساً

أثار مثل هذا الاستمتاع بهجةً مسبقة، بهجةَ اللقاء بالمرأة، المجهولة، والتي ستكون من نصيبه في المحطة التالية، وفي المقابل سيكون هو من نصيبها، وقد أصبح يشتاق، في اليوم الثالث من أسبوع نسائه، ليس فقط إلى المرأة التالية، بل يشتاق أيضاً إلى المرأة التي تليها. وفي الوقت نفسه راح يتبع حزنه، من محطّة إلى محطة؛ حزن لا يعرف العزاء. شيئاً فشيئاً نشأت خطة، هكذا دون أن يفعل شيئاً، وكأنها نشأت من تلقاء ذاتها. رأى نفسه يهرب في سلام، كانت مرّات هروبه هي السلام نفسه؛ لم يصل إلى هذه الحالة من الهدوء إلا أثناء هروبه. كان القلق يستولي على دون جوان ثانيةً كلما اقتربت المحطة التالية ومقابلة المرأة. قبل ذلك مباشرة، لم يكن ليمانع لو حال دون اللقاء ظرفٌ قاهر، أو حريقٌ مدمر، أو زلزال، أو حتى نهاية العالم. لكنه عرف

بمرور الوقت أن لا شيء يستطيع منع التلاقي. بل إن حالة الحرب في سبتة جعلت اللقاء، «كما قلنا»، حتمياً. من يومٍ إلى آخر لم تسد ظروف أكثر قهراً من تلك التي كانت بينه وبين المرأة. وذلك دون أن تصدر من دون جوان كلمة واحدة عن «الحب». كان ذلك سيُضعِف ما حدث فحسب.

في ما يخصّ المرأة في سبتة، لم يحكِ لي دون جوان غير أن مقابلتهما الأولى والأخيرة حدثت بعيداً عن أيّ تجمّع للناس. لا هي تتبّعته من احتفال، أو من منطقة مزدحمة إلى مكان يخلو من البشر. كانت موجودة منذ البداية، في مكانٍ ما أمام الشريط الحدودي الملغّم والمحاط بعدّة أسلاك شائكة، لكنّه لم يحُل دون محاولة الشعوب المحيطة بالصحاري المغربية، وتلك الصحاري الموريتانية الأبعد، أن تهرّب نفسها عبر سبتة التي تسيطر عليها إسبانيا إلى أوروبا، الجنة الموعودة على الشاطئ الآخر من البحر المتوسط. راح يتجوّل هناك، خلف القلعة، وفجأةً كانت خلفه. تتبّعته المرأة إلى السهوب ذات الرمل المتماسك، كما يتبع الرجال النساء في الشوارع حسبما يُشاع، الفارق هو أنها لم تُثِر ولو مرّة واحدة الانطباع بأنها تسير الطريق نفسه بمحض المصادفة، أو أنها في طريقها إلى هدفٍ آخر تماماً. كان هو هدفها. وهكذا لم تختبئ خلف الشجيرات أو الأطلال في أيّ مرّة كان ينظر فيها حوله – كما أنها لم تُخفِ نفسها، لم تخفِ عينيها، أو كتفيها، أو جسدها، لاحقته بخطا واسعة، ساندةً ذراعيها على خصرها، مرفوعة الهامة، ومثبتةً نظرها عليه بإصرار. بين الحين والآخر كانت تلقي بأحجار في اتجاهه، كانت في حقيقة الأمر قواقع فارغة. ثم بدا أنها اختفت، وهو ما وافق هوى دون جوان تماماً. رقد على الأرض العارية، على بطنه، واستغرق في النوم، وعندما استيقظ، رأى المرأة في ضوء النيران على الحدود؛ دون توقف راحت النيران تصدر دخاناً كثيفاً وصامتاً، وهي تسير حوله، وهو مضطجع، في دائرة. لم يكفِ هذا، حكى لي: كانت الدوائر تضيق باستمرار، وفي الختام صعدت المرأة، وهي ترفع فستانها، فوق المضطجِع، ولم تفعل ذلك مرة، بل المرة تلو

الأخرى، من هنا ومن هناك، دون كلمة، حافية القدمين. لم يلاحظ دون جوان إلا عندئذٍ أن الشابة حامل، وأن حملها ليس في بدايته.

قضى وقتاً أطول بكثير بالطبع مع امرأة أخرى مختلفة تماماً في سبتة، امرأة، كما أوضح على الفور، لم يحدث بينه وبينها أيّ شيء. جلست معه، وهي متعلّقة بذراع خادمه، في صباح اليوم التالي في بار محطة السفن التي تعبر إلى ميناء ألخِثيراس. إنها من الصعاليك والغزاة، هكذا أطلقت على نفسها، وبالتقريب كرّر دون جوان الأكاذيب التي شنّفت بها الغازية الصعلوكة أذنيه.

قالت له إنها كانت يوماً ملكة جمال سبتة. لا يمكن أن يكون وقتٌ طويل قد مرَّ على ذلك، ورغم ذلك بدا أنها الوحيدة في المنطقة التي تتذكّر هذا. للوهلة الأولى بدت غير متناسقة -تجنّب دون جوان استخدام كلمة «بدينة»، أما كلمة «سمينة» فنادراً ما تنطق بها شفتاه-، ومع عدم تناسقها كانت في الوقت ذاته واثقة من نفسها، بل متحدّية، وهكذا لم يكن عجيباً أن الخادم -كان ذلك واضحاً- قد تقرّب منها: بتعبيرات وجهه التي أضحت مألوفة، والتي تمزج بين الاشمئزاز والودّ، راح ينظر إلى المرأة وهي تحكي لسيّده عن نفسها، ينظر إليها نظرات جانبية المرة بعد الأخرى. شيء ثالث امتزج بموقفه، شيء يشبه المذلّة، أما الاشمئزاز فكان مصطنعاً فحسب، على العكس من الودّ الذي كان من أخلاق العبيد. كان من البديهي، إذاً، ألا تجلس هي بجانبه، بل العكس، أن يجلس هو، الرجل، بجانبها – أي بجانب المرأة، وقد تحمّلته كشخص يرافقها، يرافق المرأة، لفترة مؤقتة.

أرادت دوماً - منذ أن كانت طفلة؟ نعم، ربما منذ أن كانت طفلة، أرادت أن تنتقم من الجنس الآخر. ليس هناك سبب، ولا سبب واحد لرغبتها في الانتقام. فلا هي

اغتُصبت، مثلاً، على يد والدها أو جدّها أو أحد أعمامها أو أخوالها، ولا هي تعرّضت يوماً للخديعة أو الهجران من أحد عشّاقها. منذ فترة مبكرة للغاية من حياتها، كان يكفي ألا يوليها فتىً من الفتيان اهتماماً خاصاً، وألا يلاحظ وجودها أثناء المرور بها –ومنذ البداية كان من شبه المستحيل ألا يلاحظها المرء–، لتقول لنفسها على الفور: ويلك! الانتقام! سأنتقم. وما تفكر فيه، تفعله، هكذا هو الحال منذ أيام طفولتها. بعد أن تجذب الآخر إلى الفخّ، إليها، وتدعه يفعل ما يحلو له حتى النهاية، إلى أن يخرج منها، ثم تصرفه عنها دون مقدمات، وكأن شيئاً لم يكن (وبالفعل، لم يحدث شيء، مطلقاً، كلّ شيء كان تمويهاً ورقصات حرة)، ثم تطرده دون مقدمات، أو «ترسله لكي يتمشّى»، وتفعل هذا بقدر الإمكان أمام متفرّجين، ذكور بقدر الإمكان، ومنهم واحد يظنّ واهماً أنه المُصطَفى الجديد، الذي سيكون التالي في رحلة الانتقام، وهكذا دواليك حتى اليوم: مثل رفاق المدرسة، التلاميذ الصغار آنذاك الذين كانت تُنزع عنهم هالة السحر تماماً، ثم تطردهم من عالم الطفولة، أياً كان هذا العالم، دون أن تقابلهم بعد ذلك أبداً في عالم الرجال، هكذا تريد أيضاً أن تخصي إلى الأبد البالغين الذين يتقرّبون منها يوماً بعد يوم، لتصرفهم بعد ذلك في لمح البصر. كان انتقامها يستهدف ألا يعرفوا بعده ما إن كانوا رجالاً أم نساء. لم تكن المسألة -هكذا حكت لدون جوان- مسألة حب الانتقام، بل لذّة الانتقام. هذا النوع من اللذة، ومعه اللذة الجنسية، يحضر على الفور في لحظة الوصال مع أيّ رجل، ويشعرها بالإشباع. كانت لا تخرج مع رجل إلا بدافع من تلك اللذة. وتحرمه من الاستمتاع بملاحظة وصولها إلى ذروة النشوة. بالنسبة إليه لم يحدث شيء، مطلقاً. بالنسبة إليه –وهي التي أظهرت نفسها في البداية كحورية من حوريات الجنة– كان ذلك يعني استيقاظاً فجائياً خشناً من عمق أحلامه الذكورية. «كان الجنّ يسكنني. الجنّ يسكنني. كان الجنّ سيسكنني».

رغم ذلك كانت هذه الغازية والمنتقمة تؤثر أن تكون مع الرجال أكثر من النساء،

تؤثر ذلك إلى أقصى حدّ، وعلى نحو لا يقارَن. كانت تتحدّث عن إيثارها هذا بصوت يخلو تماماً من أيّ تهديد أو سخرية. بل إن الصوت الصادر عنها كاد يكون رقيقاً؛ مع رنين الكلمات، وعلى حين غرّة، يتجاوز وجهُها، بل جسدُها كله، عدمَ تناسق أعضائها. دون أيّ قصد برزت شفتاها فجأةً، وبدلاً من غلظة الشفتين ظهر المنخاران المنتفخان، ودون أن ترفع وجهها ولو قليلاً، انفتحت عيناها الواسعتان، بشكل فجائي وجميل. صحيح أن ذلك كان إلى حدٍّ ما مجرّد خداع: وهي قد استعرضت كيف كان مثل هذا التغيير في الهيئة، دون أيّ إضافات تجميلية، جزءاً من «الريبورتوار» الخاص بها، والذي تمرّنت عليه مبكراً جداً أمام المرآة، في حين أنها –وهي المتقدمة على كلّ منافساتها– أصبحت، إلى ذلك، ملكة جمال سبتة، وبالتالي ملكة جمال إسبانيا كلها. على العكس من حديثها المتمرس عن الرجال (ليس «الرجل» بل «الرجال») فما حدث لبشرتها لم يكن للحظة واحدة وليد التمرين. لقد تفتّحت وأصبحت ملساء، رغم أن شبابها مضى وولّى منذ سنين عديدة. لم يكن هذا الوجه الأملس لمنتقمةٍ مشدوداً وصارماً. للوجه ملاسة ليّنة حسبما يبدو، وهو ما أكّدته بضع تجعيدات على الجبهة، ملاسة مُستقبِلة، إنْ لم تكن ملاسة مُعوَزة، ومركزها تلك الشفتان اللتان ظهرتا فجأة شاحبتين رغم لونهما الوردي. أما ما بدا مشدوداً ومتأهّباً، فهو جسدها. لم يكن يهمّها سوى الرجال. النساء: الكلمة وحدها كانت تذهب برغبتها. عينها على الرجال وحدهم، الآن هذا الرجل، ثم ذاك، ثم آخر، يليه من جديد آخر. كانت تصرّ على الانتقام من كلّ رجل، كان هذا واضحاً منذ البدء، ودون أن تحيك خطة أبداً. لا بدّ من الاستحواذ على الرجل المعني، أياً كان هذا الرجل، ثم الانتهاء من أمره والقضاء عليه.

هذا ما استعرضته المرأة أمام دون جوان في بار محطة العبّارة في سبتة، وكان الخادم هو مادة العرض، وذلك بأن اختارت علانية رجلاً ثالثاً. نظرة طويلة عبر الحانة كانت كافية، ثم أسرع إلى مائدتها، وكأنه يلبّي أمرها. همست في أذنه. لم

يُجِب بشيء، بل انتظر مطيعاً في وضع تأهّب خاص، أو في عبودية، منتظراً أن تواصل ما بدأته؛ أو أن تصدر إرشادات أخرى. حدّدت له بصوت عالٍ سمعه كلّ الحاضرين مكاناً معيّناً، ووقتاً تقريبياً، هناك وهناك، مساء اليوم. كانت معه التذكرة للرحلة المرتقبة إلى أوروبا، هل سيؤجّلها، أم أنه -كان ذلك واضحاً فوراً على وجهه- سيلغيها؟ نهضت كي تنصرف، دون ابتسامة، مثلما ظلّت جامدة الوجه عموماً طوال كلامها السابق، وكأن المستمع إليها ليس إلا هواء. خلال الوداع لم تنعم بنظرة على عاشق الليلة السابقة بجانبها، ولا على خليفته. بدلاً من ذلك توجّهت إلى عاشقين متعانقين في زاوية القاعة: «أنتما، يا من تنظران أحدكما إلى شريكه في تواطؤ - لقاؤكما الليلة الأخيرة كان خطأ. الصواب هو أن تحملقا الآن في الأفق البعيد، ذاهلين غريبين، كل واحد منفرداً في ذهوله».

في تلك اللحظة لاحظَتْ دون جوان، وبصورة مختلفة عما سبق: كان هو الذي جعلها تلاحظه، كـ«دون جوان»؛ كيف؟ هذا ما لم يحكِه لي (وأنا لم أُرِد منذ فترة طويلة أن أعرف مثل هذه الأشياء). تعرّفت عليه، وارتعدت؛ فرجعت إلى الوراء - كأنها رأت شبحاً؟ كأنها رأت شبحاً. ينبغي الفرار من أمام هذا الإنسان، قاضيها ومنفّذ الحكم فيها. إنها بحاجة إلى شخص، إلى هذا الشخص، وبشكل ملحّ. لكن هذا آخر من يمكن أن تكون في حاجة إليه. لا تريد أن تظهر أمامه أبداً، أن تسمح بسلطته عليها، ولا حتى للحظة. لن يمنعها أحد عن مواصلة انتقامها، ولا حتى هذا. وهكذا أمسى انصراف ملكة الجمال السابقة هروباً. كانت هي التي هربت في نهاية المطاف من دون جوان، وعلى عكس مرّات هروبه، كان هروبها متعجّلاً، من دون تفكير أو حذر، ما يعني، وكما يحدث في الأفلام، الاصطدام بالمسافرين الآخرين وانقلاب الصفائح، وأشياء أخرى من هذا القبيل.

في المحطة الثالثة من رحلته الأسبوعية حدث أيضاً أن دون جوان شعر بالمودة تجاه

خادمه الجديد؛ وذلك عندما جلس الاثنان متقابلين على مقعدي العبّارة. جلس أحدهما وعلى وجهه شحوب الموتى، وهو ما لم يرجع إلى الأمواج العاتية في مضيق جبل طارق. مثل هؤلاء الناس الذين يشعرون بالحرج والمهانة -حكى لي دون جوان دون أن يشرح السبب- هم شعبه، حتى في هيئة هذا الشخص المفرد، رعيّته والتابعون له، وفي المقابل فإنه يجد نفسه مدفوعاً بأن يكون على نحوٍ ما تابعاً لهم، وتابعاً لهذا الذي هناك، حتى لو كان ذلك لا يعني سوى أن يصبر عليهم، يصبر عليه، في صمت. وهكذا، عند الإقلاع من سبتة، اختار لخادمه، الذي كان يجرّ إلى السفينة أمتعة رحلته التي تبلغ ثلاثة أضعاف أمتعة سيده، أفضل مكان، كما تولّى إبراز تذكرتَي السفر. راح يسامر الخادمَ أثناء الرحلة ويهتمّ به، فظلَّ بجانبه، وفي الوقت ذاته كان ينظر دائماً بعيداً عنه، إلى سبتة، إلى الجيب الصخري الشمال إفريقي الذي أخذ يبتعد عنهما، الجيب الذي يعطي ظهره لأوروبا المقتربة. وبغتةً لمع شيء في الرجل الواقف أمامه، حتى أن دون جوان تطلّع لا إرادياً إليه. دون مقدّمات تدفّقت الدموع من عيون خادمه، فجأة وفي صمت. وفي الوقت ذاته راح فكّاه يطحنان شيئاً، وكأنه يدرّب نفسه على الغضب الملائم. بدت نقاط الدم الصغيرة على قفاه وقد جفّت حديثاً مكوِّنةً قشرة. بالطبع، كانت أسراب بذور أشجار الحور المهاجرة عبر المضيق البحري من جانب إلى آخر، قد تقاطعت عمودياً مع حبّاتٍ ثلجية ضخمة هطلت في مايو، وعند ارتطام تلك الحبات بالماء، قذفت بها الأمواج المحيطة بالسفينة، فتشكّلت نافورة من آلاف الشظايا الصغيرة الحادة.

ما زال دون جوان يؤاخذ نفسه على أنه ودّع امرأة سبتة، امرأته، في بار محطة العبّارة وداعاً بعيداً عن الأعين. بعيداً عن الأعين، لم يكن يعني بالطبع وداعاً سريّاً أو مُختَلساً. سارت إلى الخارج، إلى الرصيف، مارّة به، برفقة رجل طاعن في السن، وتبادلا التحية في صمت، ولكن علانية، لكن تلك العلانية لم يكن ليلاحظها أكثر المراقبين حدّة – هذا تحديداً لن يلاحظها أبداً. مثل هذا الوداع الخفيّ من نسائه، وسط

الجموع، في الزحام، عن بعد، كان بالنسبة لدون جوان هو الوداع المناسب، كما كان في عينيه هو الوداع الذي يمكن أن يكون ناجحاً بين الرجل والمرأة؛ كل أشكال الوداع الأخرى بدت له محكوماً عليها من البداية بالفشل. كان معنى «النجاح» هنا أن جسديهما يودّعان أحدهما الآخر خفيةً، عن بُعد، وبكلّ الجسد. الوداع مرة أخرى، على نحو أكثر صفاء ربما. على الأقل شعر بأن جسدها الذي أصبح بعيداً قد خرج منه ضياء انتقل إليه – وبذا عرف، وبالنظر إلى ظهرها الذي أدارته بعيداً عنه، أن شيئاً آخر تماماً قد حدث للمرأة. لم تكن تريد الوداع النهائي، هي أيضاً لم تكن تريده. عليه ألا يذهب بعيداً عنها إلى الأبد، لا يجوز له ذلك. ظهرها، بخيال الظل على منكبيها العاريين، كان تهديداً: الويل لك إن لم تعد! كان يطلب، ويأمر. وخلال ذلك كان الظهر المبتعد يرجو أيضاً، بهدوء، وتضرُّع. ودون جوان، الغارق في المشهد، كان متشوّقاً شوقاً أعظم إلى البلد القادم والمرأة التالية؛ شاعراً بشهيّةٍ أعظم تجاه جسد آخر.

الرجل المسنّ بجانب امرأة سبتة الجميلة الحُبلى كان، بالمناسبة، والدها الذي جلس معه دون جوان في الأمسية السابقة ساعاتٍ طويلة في انسجام، متطلّعين معاً إلى البحر، وخلال الحوار المتقطع كان كلٌّ منها، وفي اللحظة المناسبة، يقول ما يجول بخاطر الآخر؛ شخصان ربطت بينهما الألفة منذ زمن بعيد – لكن تلك الألفة كانت تعني من ناحية أخرى، من ناحية الأب، الثقة، ثقة لا يمكن تدميرها: ليس هناك ما يخيف دون جوان عندما ينظر إلى ظهر الأب. ليس فقط لأنه يبدو نحيفاً ورقيقاً.

عندما حكى بعد ذلك بأسبوع في «بور رويال» عن اليوم الذي قضاه في سبتة، لم يتبقَّ من المدينة سوى دار السينما التي كان فيها دون جوان المتفرج الوحيد على نسخة سينمائية من «الأوديسة»، حيث كان أوديسيوس –انتهى الفيلم دون لقاء بينولبي أو ابنه– قد أنزله مجهولون من المركب خلال نومه، وبعد السنوات السبع

من متاهته في موطنه جزيرة إيثاكا، وعند استيقاظه، لم يعلم أنه في المكان الذي كان يحنّ إليه طوال تلك السنوات؛ كان ذلك المكان هو البار المقفر في سبتة -ليس هناك جيب في العالم لا يضمّ مثل هذا البار الواقع في نهاية العالم-، على حافة المنحدر في القارة الإفريقية، أعلى المضيق البحري، حيث كان صاحب البار يقف خلف طاولة البار، وهو بطل العالم السابق في كمال الأجسام، أي أعلى قليلاً في المكانة من ملكة الجمال المحلية، والذي راح يستعرض مجموعةَ عضلاته تحت جلده الذي أصبح متهدّلاً أمام دون جوان، الزبون الوحيد في ذلك الغروب في شهر مايو، مقلِّداً وضع المنتصر في الصورة الملصقة على الحائط، ومبتسماً ابتسامة بائسة، فإضافةً إلى ذلك هجرته للتو امرأة أخرى؛ كان ذلك هو الكشك الوحيد في «ساحة عذراء إفريقيا»، الذي ما زال مفتوحاً في منتصف الليل، المكان الوحيد المضيء في الجيب الذي غرق في الظلام منذ وقت طويل، مضاء من داخله، ضوء لم ينفذ إلا شاحباً عبر الصحف والمجلات السميكة المعروضة في الأمام، مثلما يخرج المرء رأسه من فتحة صغيرة، يقف خلفها البائع مستيقظاً صامتاً، حوائط الكشك الأربعة المضاءة بالكشّافات الباهرة، لا، ليست الحوائط، بل الكتب المعروضة جنباً إلى جنب، لا مكان في الحائط بلا كعب كتاب، وكل الكتب معروضة للبيع، الآن، عند التعتيم، عند الحرب التي توشك أن تنشب، مكتبة لم يصادف دون جوان مثلها طيلة حياته، ثم كيف تحتّم عليهم أن يشدّوا ويسحبوا الكتاب الذي طلبه -كان بالطبع موجوداً- والذي كان راسخاً في مكانه لنزعه من مكانه المحشور فيه بين المعروضات. و: المريض بالسرطان على العبّارة بشعره المتساقط الذي حضر العُرس في القرية القوقازية. و: العبيط المحلي الذي يقطع حارات القلعة الخالية بخطوات عملاقة، لقد كان في دمشق يلوّح للجموع يميناً ويساراً على نحو مَلَكيّ. و: ثنائي الدراجة النارية في «إيل دو فرانس»، الذي هرب من أمامهما إلى «بور رويال»، لقد قابلاه هناك في شمال إفريقيا.

خلال ذلك الأسبوع لم يخطر على باله أن يعدّ النساء. عدّ النساء، هذا أمر لم يفكر فيه دون جوان، لا الآن، ولا من قبل. لقد كان بالأحرى ينظر إلى زمن النساء على أنه

التقاط عظيم للأنفاس. ليس العدّ، بل التهجّي. كان الوقت الذي قضاه مع النساء زمناً يخلو من الأرقام. التوقف عن العدّ، لا شيء يعبّر عن نفسه من خلال الأرقام. التقاط الأنفاس، هذا معناه أن الأماكن أيضاً، والمسافات بينها، لا تعني شيئاً؛ لا تجسّد أيّ مقياس. سفره كان يعني في الوقت ذاته وصولاً دائماً، هكذا مثلما كان يفكّر في الوصول باعتباره سفراً. كان يرى نفسه محميّاً، زمن النساء يحميه، خارج زمن العدّ؛ ما دام ذلك الزمن ممتدّاً، لا شيء يمكن أن يحدث له؛ هروبه كان أيضاً جزءاً من ذلك الالتقاط العظيم للأنفاس؛ هروبه في كل مرة كان هادئاً، بل مطمئناً، بعينين مفتوحتين على اتساعهما. زمن النساء كان يعني المرّة تلو الأخرى: لدى المرء وقت. سيصل في الموعد. يسير متماشياً مع الوقت. الزمن يلعب دائماً لصالح المرء، حتى أثناء النوم. والمرء يشعر بنبض الزمن، في أخمص قدميه وأنامل أصابعه. لا يشعر المرء بأنه محميّ فحسب من ذلك النوع من الزمن، إنه يشعر، بالأحرى، بأن الزمن يحمله، ولذلك، بدلاً من أن يعدده، فإن الزمن هو الذي يحصيه. طوال تلك الفترة الزمنية كان المرء يشعر بنفسه مصوناً وحيّاً في الحكايات.

بالنسبة إلى دون جوان، لم يكن هناك الكثير ممّا يمكن أن يحكيه عن المرأة في الترويج، باستثناء أنها كانت تنتظره خلف المطبخ، بعد القدّاس الإلهي الذي تقاربا خلاله أكثر فأكثر (لا شيء أكثر طبيعية وأقلّ شهوانية، قال لي شارحاً، من أن رجلاً وامرأة، أُعجب كل منهما بالآخر، ينفتحان جسداً وروحاً خلال الطقس المقدس، هذا أمر طبيعي أكثر من حدوث ذلك في أيّ احتفال آخر). كما أن المرأة هناك كانت وفق المفاهيم المحلية مريضة، مخبولة أو مجنونة. لكن دون جوان لم يُرد أن يرى فيها جنوناً، ولم يرد حتى أن يصدّق عندما وصفت نفسها بأنها مجنونة، وخصوصاً آنذاك لم يصدّق. أراد أن يكون بجانبها، ببساطة، وهو ما فعله أيضاً - وكيف فعل ذلك! هكذا تخيّلتُ الأمر على كل حال دون أن يفصّله لي.

ما تبقى لدون جوان من اليوم الذي قضاه مع المرأة النرويجية على ساحل اللسان المائي، «الفيورد»: المائدة الخشبية في الهواء الطلق؛ السناج على الجليد (الذي لا يزال موجوداً في القوقاز)؛ الضوء على المياه، في المساء، الذي لا ينطفئ، بل يظل ينير وينير لفترة، وكأنه سيظل إلى الأبد؛ القمر المتماثل تقريباً مع قمر اليوم السابق في سبتة، واليوم الذي سبقه في دمشق؛ الأحواض الحمراء والصفراء، الملساء كالمرآة، التي خلّفتها الألسنة الجليدية التي انصهرت لتوّها؛ أن تجلس هكذا، أن تكون كلّك عيناً وأذناً؛ القراءة، القراءة، تقليب صفحة بعد أخرى حتى اليوم التالي في الكثبان الهولندية، حتى اقتراب المدّ هناك. قفزت سمكة من «الفيورد». مرّت امرأة عجوز، وعلى كتفها اليسرى تأرجحت حقيبة يد لها حمّالتان طويلتان جدّاً، كم كانت الشنطة صغيرة! وكم بدت فارغة! مرَّ شيخ أكبر سنّاً، صيني في بدلته الزرقاء المزرّرة حتى الذقن، كان يصنع قوساً كبيراً مُفسِحاً الطريق لكل من يقابله، يفعل ذلك بإجلال لن ينساه دون جوان. طفل يضغط باستمرار على أزرار صندوق موسيقا لم يعد يُستعمل، في الخارج على الشاطئ. طفل، ثانٍ، أو هو نفسه، يلعق صحنه لفترة أبدية، والوجه مختفٍ وراءه. فُقِدَ طفل، ثالث أو هو نفسه، وكلّ الذين كانوا عند «الفيورد» ذهبوا للبحث عنه، وصاحوا في المنطقة الصخرية العارية بالاسم الذي ذكرته الأم، إلى أن أعادوه يقطر ماء، ولكن سليماً (من أعاده؟ هذا ما حكاه لي خادم دون جوان الذي ظهر من جديد). وطبعاً لم ينقص الحكاية مورِّد البيتزا المراهق على «الفيسبا»، الذي لم يجد الطريق إلى الزبون في سبتة، وهنا أيضاً في النرويج، كان في البداية يضغط على دواسة البنزين منطلقاً في كل الاتجاهات الممكنة، قبل أن يفرمل في كل مرة حائراً. أما المريض بالسرطان، أوه!، فقد نما له على كل حال بعض الزغب على رأسه. والمريض بالتوحّد، أوه! -الذي كان يجلس القرفصاء وكأنه يصلي في قلب محطة السكك الحديدية في دمشق وسط البقع البترولية هناك، وإلى جانبه الممرّض الأسود- يرقد الآن على شاطئ «الفيورد»، نائماً على بطنه بين حَسَك السمك، في وسط الطريق على الشاطئ، والممرّض، مثلما كان في دمشق، يجلس بجانبه مشبكاً ذراعيه، هادئاً وأسود. ومن غير أن يحتاج دون جوان إلى ذكر ذلك، رحت أتطلع أيضاً إلى

بذور أشجار الحور ذات الزغب القطني التي راحت تطير مرة أخرى عبر البلد كلها، يتوزع لونها بين الفضي والرمادي، تطير إلى أعلى وإلى أسفل، وإلى الجانب، شمالاً وجنوباً، وهو ما افترضته أيضاً خلال الإصغاء إليه في المحطات التالية، المحطة الهولندية والمحطة الأخيرة قبل «بور رويال» التي لا تحمل اسماً. بالمناسبة، لقد اختفى خادم دون جوان بعد الوقت الذي قضاه مع النرويجية – ولكن بالطبع ليس قبل أن يجهّز لسيده الأشياء الضرورية لمواصلة رحلته، بل وأكثر من ذلك: وضع له جوارب رتّقها رتقاً ممتازاً وكما لا تفعل سوى امرأة، كما كوى البدلة والقميص، وخاط له الأزرار خياطة متينة لا تنفكّ حتى أثناء الهرب، ونظف الأحذية إلى أن لمعت، حتى اللسان والكعب، ووضع لها نعلاً جديداً طريّاً، وكأنها أحذية سحرية تستطيع أن تأخذه في يسر إلى أبعد مكان. دون جوان يهرب إذاً مجدداً؟ لقد ألمح لي فحسب أنه اضطرّ للهرب في الآونة الأخيرة، حتى لا يصبح قاتل المرأة – قاتلاً بطلبٍ منها.

لم يكن لديه ما يحكيه عن امرأة هولندا، كشخص، إلا أقل القليل – وهو ما لم يكن يعني بالضرورة في أذني كمستمع خيبةَ أمل، فضلاً عن أن يكون سأماً: على العكس كان دون جوان يحكي لي يوماً بعد يوم، وبحماسة متزايدة، وبعينين لامعتين كانتا تتجاوزانني وتنظران بشكل دائم تقريباً إلى الفراغ، وفي النهاية تنظران باندهاش بسبب بعض التحوّلات في حكايته، مثلما يندهش المرء ربما بشأن شيء حدث له شخصياً، لأنه يقع على الأسماع أثناء الكلام عنه وكأنه تأليف، وكأنه شيء مختلق، لكن هذا لا يعني مطلقاً أنه ليس حقيقياً؛ وفي هذه اللحظات من التعجب فقط كان المستمع يرى نفسه محطّ أنظار دون جوان، الذي لم يكن في العادة يُظهر لمتحدّثه سوى جزء يسيرٍ من جانب وجهه.

جزء من الاندهاش المتزايد يوماً بعد يوم خلال ذلك الأسبوع، الاندهاش من الأحداث المعيشة، كان بالتأكيد يرجع أيضاً إلى أن أماكن مغامرات دون جوان كانت

تغدو شيئاً فشيئاً بلا اسم (النساء كنّ كذلك، وهو ما يليق بالحكاية منذ البداية). في النرويج كان «الفيورد» يقع بالقرب من مدينة «برغن»، أم أنني ربما استكملت تلك المعلومة أثناء الإصغاء؟ في هولندا لم يُذكر أي اسم. لم يخبرني دون جوان عن المرأة هناك، غير أنه -وهو الهارب عبر الكثبان الاصطناعية، التي كانت في الحقيقة جبلاً من القمامة رُدِمَ وسُوِّي بالأرض- قابلها وهي هاربة هي الأخرى، يتعقّبها زعيم القوّادين الذي كان من المفروض أن تعمل لصالحه مومساً في ذلك اليوم قبل أسبوع بالضبط. ليست هي بأي حال من الأحوال «فتاة لعوب» (في حكايته بدأ دون جوان يستخدم بشكل متزايد صيغة المضارع، ولم يعطني سوى رؤوس أقلام في ما يتعلّق بالمحطة القادمة الأخيرة). التفصيل الوحيد المختلف عن المرأة الهولندية هو أنها جلست معه بجانب النافذة، مطلّةً على قناة أو كما يقول الهولنديون «غراخت» – وبذور أشجار الحور تتنقل إلى آخره-، وقطرات مطر مايو تقع على سطح المياه الملساء كالمرآة، المياه المظلمة، والمرأة تقول حرفياً والدموع في عينيها: «هذه هي هولندا».

في ما عدا ذلك رأيت، أو حدست، دون جوان يقضي هناك أيامه ولياليه وحيداً تماماً. لم يرافقه سوى كلب، بلا صاحب، أو ربما له صاحب. رافقه لمدة طويلة، بل كان في بعض الأحيان يسبقه، ثم ينتظره ليدلّه على الطريق. بعض الغبار يطير من بين قضبان الترام. في غابة صنوبرية يسحب دون جوان شوكة من مشط قدم الكلب الذي ما زال يرافقه، وفي الطريق الرحب يقصّ بالمطواة مخالب الحيوان حتى لا تصدر صوتاً عالياً أثناء المشي على الأسفلت. طوال اليوم كان المطر الغزير يهطل لمدة قصيرة ثم يتوقف، ثم يهطل مرة أخرى. عندئذٍ كان يجلس تحت مظلّة كشك يتزوّد منه الناس على أحد طرق الدراجات، ثم يقرأ في الكتاب الذي اقتناه بالأمس من كشك آخر تماماً في إفريقيا، كانت قطرات المطر التي يقذف بها الريح تتساقط على أوراق الكتاب، وكذلك على يدي دون جوان وقدميه؛ يجلس هناك في الظلمة المضاءة، ويقرأ ويقرأ، الكلب بجانبه على العشب، أو ليس بجانبه. حيثما يمشي أو

يقف أو يجلس، كان دون جوان يُصاب برجفة، ويلتفت بشدة، أو يقفز من مكانه، ويعدو عندما يسمع طفلاً ينادي، أو بالأحرى يصرخ، وفي كل مكان كان يسمع طوال اليوم صراخ أطفال، أو يتوهّم ذلك عند سماع صياح النورس أو صليل الترام أثناء مسيره في المنعطفات. قرب المساء تظهر في شريط الأفق على بحر الشمال سفينة بحّارة «الأرغو»(7)، خالية، دون جاسون، ودون الصوف الذهبي، وتسير ميديا من الشاطئ إلى المنزل حتى تقتل طفليها. عند هبوط الظلام تظهر هولندا كلها وكأنها بلد النيون أو الشموع، وتعلو الموسيقا أينما ذهب المرء، وفي كل مرة يسير دون جوان بعيداً عن الموسيقا، بعيداً عن الموسيقا، عن هذه وتلك. بدلاً من ذلك كان يتشمّم محلات بيع الزهور التي أغلقت منذ فترة طويلة –كل الزهور، إلا التيوليب–، يتشمّم الكتاب، ويتشمّم أنامله، زمن النساء، زمن الأنامل. وفي الختام الليل الدامس، وأخيراً الهدوء، هدوء البحر، وأخيراً أيضاً، وبعد كل الليالي السابقة، البدر في تمامه الذي يتطلع إليه باستمرار المشّاء الوحيد، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان ينظر إلى البيوت التي تخلو كالمعتاد من الستائر، حتى يعرف أخبار الساعة من التلفزيون، إلى آخره. كان بإمكان دون جوان أن يسهب في الكلام ويغنّي موّالاً طويلاً عن ذلك اليوم، وبالفعل، لقد تحدّث عن ذلك حديثاً مُنَغَّماً، أو ربما أتوهّم أنا الآن ذلك. ثم الانقطاع الفجائي لذلك الحديث المُنَغَّم: هروب جديد.

كان البلد الأخير بلا اسم على الإطلاق. مع المرأة الأخيرة. ليس لأن دون جوان أخفى عني اسم البلد، وإنما لأنه لم يكن يعرفه منذ البداية، ولم يتمنَّ أيضاً أن يعرفه. إنه حتى لا يعرف كيف وصل إلى هناك. ليس ثمة صورة من الرحلة (ومع ذلك فلا بدّ أنه ارتحل). فتحتُ عيني، بعد تعب عظيم: وكان هناك. والمرأة هناك، فوقه، تحته، أمامه. ولم يعرف ثانيةً كيف التقيا، ولم يكن ثمة ما يُعرف أيضاً. لم تكن ثمة كلمات لكل ما حوله، رغم أن ما ساد في محيطه كان عكس الفوضى. ليس فقط لأن المرء لا يهمّه أن المكان وكل شيء من الأشياء هناك كانت تبدو مجهولة ولا يمكن تسميتها: لقد كان ذلك يعني ذروة الدهشة؛ كان ذلك ساحراً، دون أيّ سحر.

عندما حكى دون جوان بعد سبعة أيام عن اليوم الذي قضاه في بلد اللااسم، كان يتهته ويجمع الكلام بصعوبة، لم يكن يعرف شيئاً في ما يتعلّق به وبالمرأة الغريبة التي ظلت حتى النهاية غريبة، ولا حتى مَن قال ماذا، أو مَن فعل ماذا. (وقد مكثا –وهو استثناء طوال الأسبوع– طوال اليوم تقريباً وطوال الليل الواحد قرب الآخر). لم يعد دون جوان يعرف: هل قرأ لها، أم قرأت هي له؟ هل أكلت هي السمك أم هو؟ هل أدفأها عندما شعرت بالبرد، أم أنها بالأحرى هي التي أدفأته؟ هل كسبت هي مباراة الشطرنج أم هو؟ مَن سبق الآخر أثناء السباحة، أنتِ أم أنا؟ مَن اختبأ من الآخر لبعض الوقت: أنا أم أنتِ؟ مَن كان يتحدّث ويتحدّث: هي أم هو؟ مَن كان يصغي طيلة الوقت: أنتِ؟ أنا؟ أنا؟ أنتِ؟ لم نعد نعرف: هذا جيد. فلنبتهج!

ما بقي في تلك المحطة التي بلا اسم هو، بالتأكيد، مورِّد البيتزا، طفلاً لا يزال، يركب «الفيسبا»، وهي من طراز شائع، وظلَّ دون جدوى يبحث عن الطريق (إلى ذلك نفد منه البنزين)؛ وظلَّ المتوحّد ومرافقه يواصلان موكبهما الثنائي، الأول يصرخ تجاه السماء، والثاني يمسك بذراع الأول؛ وانطلق ثنائي الدراجة النارية في طريقه إلى عشّ غرامه (باستثناء أن المرأة هنا كانت سوداء الشعر، وليست شقراء)؛ وما زال الرجل المسنّ في دمشق، وفي «برغن»، صامداً، وهو يلهث من جديد، في المجرى النحيل الموازي للرصيف، والمخصص لتصريف مياه الأمطار، عاجزاً عن وضع قدمه، سواء اليمنى أو اليسرى، على الرصيف... لم يكن دون جوان بحاجة حتى إلى أن يذكر لي هذه الأشياء في صورة كلمات مفتاحية. عبر تجنّبه لها، كنت أرى كل شيء بمرور الوقت بشكل أوضح.

دون جوان والنساء: هذه الحكاية التي رواها بنفسه كانت قد وصلت إلى نهايتها. سبعة أيام في الحديقة قضيناها، هو وأنا، وها هو ذا عيد العنصرة على الأبواب. ما

زالت العصا التي طارت وسبقت مجيئه مغروسةً في الأرض، مغطاة بالأعشاب التي نمت في أثناء الأسبوع، إلى أن وصلت إلى ارتفاع أعواد القمح. حتى إذا أمطرت السماء يوماً، كنّا نظلّ في الخارج، في الهواء الطلق، تحت شجرة الكستناء، ثم تحت الزيزفونة كثيفة الأوراق، ولم تكد قطرة مطر تنفذ إلينا، كان السقف الورقي فوق رأسينا بلا ثغرة تقريباً، هنا وهناك رأينا وميض السماء المنقّطة: نجوم نهارية في قبّة الزيزفونة السماوية الخضراء القاتمة. في تلك المرحلة نهض دون جوان كثيراً وتحدّث واقفاً؛ ثم ماشياً القهقرى. عندما كانت الشمس تشرق، ورياح مايو تهبّ بين الشجر، عندئذٍ كانت تسود المكان تحوّلات الضوء المرتعش، من اللون الأبيض تقريباً حتى الظلال القاتمة، حتى إن دون جوان كان يختفي للحظات داخلها.

ظلَّ معي في المَضيَفة في «بور رويال دي شون» حتى بعد أن انتهى من حكي أسبوعه. لأنه كان ينتظر خادمه، أو أياً كان السبب: لم أطرح أيّ أسئلة. وافقَ هواي أن دون جوان لم يواصل مسيرته على الفور. لقد أحببتُ حضورَه. حتى فكرة الجيرة التي شغلتني طوال يومي، والتي اعتقدت أنني أخفقت نهائياً في تحقيقها في منطقة «بور رويال» المقفرة، عادت من جديد مع هذا الغريب، القريب مني، هذا الهارب. استطعت أن أتخيّل دون جوان جاراً لي، إذا لم يكن خلف جدار المضيفة مباشرة، فعلى الأقل على بعد أميال قليلة، مثلاً في الناحية الأخرى، على منحدرات «سان لومبير». وعموماً، لقد توقفت، بفضل إقامته، لأول مرة عن الإعجاب بنفسي في دور الفاشل. يكفي منظره وهو يأكل ما طبخته له: كان يفعل ذلك بكل حواسّه، بالمعنى الحرفي للكلمة، وكما لم أرَ أحداً يأكل منذ زمن بعيد؛ مضغه للطعام كان به شيء من التمهيد لصياغة ما سينطق به. لم أكن أتخيّله جاراً فحسب، بل تخيّلتُ أيضاً مطعمي – أن أخدم ضيوفاً جدداً، الأمر الذي كان لعبتي المفضّلة منذ كنت طفلاً.

خلال السبعة أيام التي قضيناها معاً، كفَّ دون جوان عن أن ينتظر مني أن أخدمه

طوال الوقت. مدّ إليّ يد العون، وهو ما لم أكن أتحمّله إلا بصعوبة، لا سيما في مطبخي الضيق. لكن حتى الحيّز المحدود أشعرني معه بنوعٍ من المتعة. المتعة الممتزجة بالحسد من ناحيتي، كنتُ قد شعرت بها وأنا أشاهده خلال قيامه بما يفعله. ليس فقط لأن دون جوان ماهر في استخدام أصابعه على نحو يصيب بالدوار: خلال العمل كان ينجح في أن يقوم بكلتا يديه أو ذراعيه بحركاتٍ متعاكسة تماماً، وهو أمر كاد يلقي بي دائماً، مرةً بعد أخرى، إلى حافة اليأس في ما يتعلّق بمهنتي، وليس فقط في ما يتعلّق بها. حتى أبسط الأشياء –مثلاً أن يسحب باليمنى شيئاً، وفي الوقت ذاته يدفع باليسرى شيئاً آخر– كانت تصيبني بارتباك لا شفاء منه. على عكسه هو: بيد، فلنقل، يقطع بصلة، وبجانبها وباليد الأخرى، فلنقل، يعجن العجين: لا مشكلة. على هذه الشاكلة كان يقوم بدحرجة شيء بيد، وبالأخرى بتنقيط سائل، بالتقطيع والتسوية، والتجويف والحشو، والرمي والالتقاط، والدلق والصب، وكأنه يقوم بحركة واحدة متصلة. بينما تقوم يمناه بتخشين شيء، تأخذ يسراه في تنعيم شيء آخر. يقطف ويخفق في آنٍ واحد. يمدّ يده على آخرها، وبالأخرى يعتصر شيئاً. ينشر، ويربط البرغي. يجرّ، ويربّت. يقلب صفحة، ويدقّ مسماراً. وفي كل ذلك، باليمنى واليسرى، كان دون جوان يتصرف على نحو واضح وببطء، وظاهرياً كما لو كان يتباطأ، وكأنه يفكر أثناء كل فعل في شيء ما أو شخص ما. هكذا كنت أراه وهو يعمل.

ما إن انقضت الأيام السبعة في الحديقة حتى تلاشى هذا الانطباع شيئاً فشيئاً. يوماً بعد يوم تراءى لي دون جوان مرتبكاً، لا يحسن الإمساك بشيء، تسقط منه الأشياء ويفقد السيطرة عليها. كما كان ينظر على الدوام إلى الساعة، ويضيف إلى أيّ واقعة صغيرة تاريخ اليوم. كتاب رسائل باسكال إلى رئيس مقاطعة «بور رويال»، الذي كان يتلو منه عليّ في الأمسيات، فيسلّينا كما لا يفعل شيء سوى كوميديات موليير، هذا الكتاب ظلَّ مغلقاً. أصبحت شاهداً على إصابة دون جوان بهوَس العدّ. كان يعدّ

خطواته، وأزرار قميصه، في البداية بشفتيه فقط، ثم بصوتٍ عالٍ؛ يعدّ السيارات في وادي رودون، يعدّ أفراد سرب السنونو عندما يعبر سماء الحديقة، بل لقد حاول أن يعدّ كل بذرة من بذور أشجار الحور. وبالطبع لم يكن الأمر متعلّقاً بالسأم. لم يكن الزمن قد طال، مثلاً، في عيون دون جوان. لم تكن الأحداث أو الدقائق البارزة قليلة جداً، على العكس، لقد كانت كثيرة، كثيرة جداً. كل لحظة كانت بارزة، وكل شيء؛ كان الزمن يتفتّت إلى شيء ثانٍ وثالث، إلى إنسان ثانٍ وثالث. بدلاً من السياق الذي يعطي الإحساس بالزمن، لم تبقَ سوى التفاصيل، كلا، لم يبقَ إلا الانفصال والوحدة. لم يبدُ لي بطيئاً، بل ثقيل الحركة وخاملاً، مرتبكاً كما قلت، أو أنه كان يسرع، مرتبكاً أيضاً. على طريقته كان دون جوان يشعر بضيق الوقت. وفي كل لحظة كان يسألني عن الساعة.

لم يكن سيغيّر من الأمر شيئاً إذا تركته يمضي. وأنا لم أُرِد أن أتركه يمضي سريعاً هكذا. كما أنه هو نفسه لم يكن يريد مغادرة «بور رويال» بعد. وهكذا اصطحبت دون جوان، في اليوم السابق على عيد العنصرة، إلى مقبرة قرية «سان لومبير». قضى في الحديقة وقته كلّه، من الصباح الباكر حتى المساء المتأخر: ربما يكون ساهم ذلك أيضاً في مرض الزمن لديه. لكن الخروج الحر، ظاهرياً، إلى الطبيعة لم يُحسّن من الأمر. ظلت الطبيعة بالنسبة إليه مكاناً داخلياً يبعث على الضيق، مثلما كان بيتي بحديقته المسوّرة في السابق. بدا وكأنه سجين يتحرك تحت ناقوس زجاجي سميك. في كلّ خطوة كان يصطدم بشجرة، ويتعثر في منحدرات طريق فيقع في المستنقعات المجاورة لغدير «رودون»، يمدّ يده ليهشّ بعوضة هي في الحقيقة حمامة برية ترفرف في الأعالي. ورطة الزمن التي وجد فيها نفسه كانت تعني أيضاً فقدان المسافات والفواصل. عندما نظرنا أمامنا إلى هضبة «إيل دو فرانس» الرحبة –فكرتُ لا إرادياً: واديّ!– ثم صحت: «يا لها من سماء!»، بادرني دون جوان عندئذٍ بالسؤال: «أيّ سماء؟»، عندما فقد نعلَ حذائه خلال طلوع الجبل، ثم عقّبت قائلاً: «إن ذلك

سيجلب الحظّ»، ردّ علي: «كل شيء، إلا الحظّ، من فضلك!»، وهو ما يعني شيئاً آخر غير ما كرّره في اليوم السابق في الحديقة: «الجرأة، لا الحب!». راح يعرج ورائي وكأنه يعاني اعوجاج القدمين، مع أنه كان يسبقني في السير طوال الأسبوع، على الأقل كان يشير بعينيه إلى الأفق البعيد. أضحت الحيوانات، على نحو خاص، أعداءه. ففي حين كانت قطط «سان لومبير» تمكث عنده، في أثناء جولاتها طوال الأسبوع، في كل يوم فترة أطول من اليوم السابق، وفي الختام كانت تأتي في صحبته، فقد أمسى دون جوان الآن خلال سيره يشعر أن حتى فراشات مايو واليعاسيب المولودة حديثاً تهاجمه. خنفساء «فرقع لوز» كانت تقفز الآن من أجل إغاظته فحسب. العناكب غير الضارّة مطلقاً كانت تقذف بالسمّ في وجهه. صرصور الليل الذي يظهر في مطلع الصيف كان يسمعه على أنه تكّات ساعة منفّرة، بشائر الجراد الأخضر المتنقّل عبر أعواد الحشائش كان يسمعه مثل تكّات ساعة أكثر مدعاةً للنفور. ورغم أننا كنا نسير دون أن نقابل شيئاً تقريباً، فقد كنت أسمع في ظهري العدّ المتواصل الحانق – عدّ الحيوانات، والمخلوقات المشوّهة، وما يختلط عليه.

وأنا في طريقي إلى «سان لومبير»: ما أكثر ما تغيّر بعد الأيام السبعة التي عشتها مع حكاية دون جوان! انتقل أجانب أخيراً للعيش في القرية وكما تمنّيت دائماً. على الأقل كان المحلّ الوحيد، الذي بدا وكأنه قد أُغلق إلى الأبد، مفتوحاً كما في اليوم الأول، مفتوحاً على نحوٍ احتفاليّ، وعند الباب وقف هنديّ بعمامة، في حين انعطف في الزاوية ثنائيٌّ صينيّ معه خريطة التجوّل في منطقة «بور رويال». وعموماً، وبعد الأسبوع الذي قضيته مع دون جوان، بدا لي كل أولئك الجيران البعيدين (نعم، الجيران) وقد أضحوا شباباً. اختفى الأسلاف، والمدّخرون للمال، والفرق المتجوّلة من البخلاء العجائز. تشمّم أنفي الصفقات القادمة. وكذلك في ما يخصّ المسنّين القلائل الذين بقوا في المكان، فقد لاحظت خلال تجوالي أن شيئاً ما تغيّر فيهم: رأيت هذا أو ذلك لأول مرة، بعد كل تلك السنوات، خارج النطاق المألوف من البيت والطريق السريع، في الغابات التي تتخلّلها جداول، وهم يقطفون حبات الكرز البري الذي

نضج لتوّه، وأولى ثمار الفراولة البرية في حافة الغابات. في المرات النادرة التي قابلني فيها جامع ثمار في الغابة، كان يبدي خجله مما يفعله (أو أنه لم يكن من المنطقة): أما الآن فقد كان جميع الناس يجمعون الثمار في الغابة، سواء من الغرباء أو سكان المنطقة، يفعلون ذلك على نحو بديهي، بل بوعي، وأنا تخيّلت أن الجدد في القرية، وكذلك المسنّون خارجها، سيصبحون قريباً زبُناً جيّدين لي.

أما بالنسبة إلى دون جوان فقد شعر أن الناس، القلائل هناك، أكثر من اللازم. لقد انتزعوا منه الفضاء المحدود الذي تبقّى له، وهدّدوا بإزاحته من المكان. كان يحصي الكائنات القليلة في وادي «إيل دو فرانس»، الذي بدا لانهائياً، وكأنهم ينتمون إلى جيش جرّار من الأعداء. أصبح من ناحية مهذّباً على نحو غريب، ففي حين أنه طوال الأسبوع كان ينتظر من كل الناس أن يبادروه بالتحية، أصبح الآن يحيّي كلّ مَن يمرّ به، لكنّه كان يفعل ذلك على نحو مرتبك، وعلى بعد كبير جداً، فلم يسمع أحد تحيّته، أو –إذا سُمعت– لم يفهم الناس أنها تحية. من ناحية أخرى كان يسلك سلوكاً يكاد يكون فظّاً. لم يصطدم بالثنائي الآسيوي السائر يداً في يد فحسب، بل فرّق بينهما عندما اقتحمهما وهو يسير خافضاً رأسه؛ لم يكن ذلك ينمّ عن مجرّد ارتباك، إذ إنه أطلق اللعنات وهو يمرّ بينهما، قائلاً إنه لعارٌ أن يسير العشّاق من الصين، إمبراطورية الوسط، وهم يمسكون بأيدي بعضهم بعضاً على الملأ، إلى آخره. كانت مشكلة الزمن لدى دون جوان قد بدت لي كأوضح ما تكون بالطبع في «خشونته» التي اندلعت فجأة، في احتياجه الذي بدا لي غير مألوف على الإطلاق إلى الموسيقا، أياً كان نوعها: في فترة وجودنا معاً كان يتجنّب الموسيقا، أياً كانت، يتجنّبها أكثر من أيّ شيء آخر، أما الآن فمن الممكن أن نقول إنه أضحى مدمناً للنغمات والإيقاعات والأصوات. عندما كنا في المدافن سألني بكلّ جدّية ما إذا كان لديّ جهاز «ووكمان».

هناك أيضاً واصل في البداية سيلَه المتدفق من الأرقام والشتائم. كان يعدّ كلّ

المقابر، ويسبّ الحارس الذي نشر أمام بيته الواقع -وكما يحدث كثيراً في فرنسا- في وسط المدافن، ليس فقط مفارش المائدة، بل أيضاً ملاءات السرير، «وهي فوق ذلك منقوشة بمربعات حمراء». كاد كلامه يكون مضحكاً، لولا أنه كان ينتفض غضباً. كان دون جوان يرتعش. يرتعد، وكل هذا دون أيّ إيقاع. للحظةٍ فحسب كفَّ عما يفعله عندما راح يتأمل الطريق الخالي في الغابة الذي شُقّ في الخلف بين مقابر «سان لومبير»، والمخصص لذكرى راهبات «بور رويال» اللائي طُردن من ديرهن باعتبارهن مهرطِقات، وذلك لأنهن كنّ رحيمات تجاه شيء غير بديهي، لا يفهمه الناس بسهولة (في القصة التي ألّفها تخليداً لأولئك النسوة، أطلق جان راسين، الذي تعلّم على أيديهن وهو بعد فتى غرير، على منطقة بور رويال: désert، والكلمة كانت تعني في أيامه شيئاً آخر غير مجرد «صحراء»). في تلك اللحظة أطلق دون جوان على الحفرة أو الأخدود الذي يُقال إنه يضمّ رفات راهبات الدير صفة «السمو»، مع أن هذه الكلمة تصف في المعتاد شيئاً مرتفعاً سامقاً، وليس حفرة أو أخدوداً.

لحظة أخرى من الصمت والتأمل تمثّلت في جلوسنا على المقعد الخالي من المساند خلف المدافن، عند ملعب الأطفال السابق هناك، وهو عبارة عن تلٍّ اصطناعي مزوّد بدرجات؛ لم يبقَ أثرٌ تقريباً للدرجات الخشبية عليه، لم يتبقَّ سوى الأرض الطينية الرخوة التي أمست هرماً قمعياً صغيراً، نمت عليه نباتات الغابة وتشعّبت. تحت أقدامنا منطقة رملية تتخلّلها منخفضات كانت العصافير تتحمّم فيها، وكل منخفض تستخدمه الطيور المحلية منذ سنوات، وتجدِّد استخدامه، في المكان نفسه دائماً، وكل أنواع الطيور المتحمّمة خلّفت في الرمل ما يشبه كوكبة الدب الأكبر. الدب الأكبر يُلائم العصافير. كان دون جوان يعدّ المنخفضات؛ يفعل ذلك الآن دون هوس العدّ. رافق ذلك التنهيدة المألوفة في أذني. مَن قال إن الحزن لا بدّ أن يكون عبئاً؟ كان دون جوان هو الذي ذكر السماء لاحقاً، عندما رفع رأسه أخيراً وصاح: «هذه حقاً سماء!». ثم عاد أطفالٌ من جديد ليلعبوا في المكان. طفلان. لعبا دور عاشقين ولهانين، وهما

يلهثان ويتأوهان، وفي النهاية أخرج كلاهما لسانه.

(7) بحّارة الأرغو (بالإنكليزية Argonauts)، هم مجموعة من أبطال الميثولوجيا الإغريقية، أبحروا قبل الحروب الطروادية، واشتق اسمهم من «سفينة الأرغو» التي سميت على اسم صانعها أرغوس. والجملة تتضمن إشارات عديدة إلى هذه الأسطورة (جاسون والصوف الذهبي وميديا إلخ). (م)

ثم وقفت سيارة الخادم أمام مَضيَفة «بور رويال». كانت مثلما تخيّلتها بعد أن سمعت حكاية دون جوان: سيارة روسية قديمة. أما الخادم نفسه فقد خالف توقعاتي في البداية، وكما يحدث في المعتاد مع كل أولئك الذين أعرفهم عبر السمع فحسب. لا إراديّاً رحت أبحث عن الخربشات والعضّات في وجهه. لكنّه بدا سليماً تماماً. الشارب وحده بدا محترقاً في جزء منه، وما اعتبرته للوهلة الأولى طوقاً للعنق لا يتلاءم إطلاقاً مع الخدم، اتضح أنه دعامة توضع للمرضى حمايةً لفقرات العنق في إثر الحوادث. بالمناسبة، عندما وصلنا، ظلَّ الخادم جالساً في السيارة وظهره مستقيم تماماً، محدِّقاً أمامه في جمود. ورغم أننا وقفنا أمامه وبجانبه، فلم يبدُ عليه أنه لمح دون جوان أو لمحني. كان في خضمّ مناجاة يبدو أنه بدأها منذ أمد بعيد، تقريباً بلا صوت وكأنها صادرة عن مسرنم؛ ما فُهم منها كان تقريباً كالتالي:

«... المرأة والموت. كلما سرتُ إليكِ، كنت أهيّئ نفسي لموتي. لقد اندفعتِ تجاهي فعلاً، وكأنكِ تريدين قتلي، ثم سقطتِ بين ذراعي. في البداية على كل حال. داهمني بعد ذلك خطر الاختناق. آثار خدّك على النافذة التي لم أنظفها حتى اليوم. عند اقترابك من الباب ألقيت بظلّك عليه حتى أظلم المنزل كله. آه، كم ابتهجت بظلامك! ما كدت تأتين، حتى لم أعد أعرف شيئاً في غرفتي، ليس لأنك قمت على

الفور بترتيب الأشياء وإعادة ترتيبها، ثم إعادة ترتيبها. آنذاك في الصحراء، العربية والتشيلية، هناك كنا، زوجة وزوجاً. آه، كم تأثرت بشَعرك الخفيف الذي غزاه الشيب! لدى استنشاق رائحتك اندفعت أغنّي، وعندما أغنّي يوماً، فذلك يعني الكثير. عندما رقدتِ هناك، فقد كنت ترقدين، ترقدين كما لا يمكن أن ترقد سوى... هه، سوى امرأة، الرقاد، والرقاد، وبينك وبيني رقد طفلك، ضاغطاً طوال الليل بحفاظته المبلولة على وجهي. كأنك تقفين في الساحة، امرأة، وحدها، بلا رجل، ذات سيادة، وكما لا يمكن أن تقف سوى امرأة. قلتِ لي: «تعال!»، لكنك كنت تعنين: «مُتْ!». لماذا لم أتركك تعبرين ببساطة – وهو ما تفضّلين فعله على كلّ حال، خصوصاً وأنك تكونين أكثر إثارة وأنت تعبرين؟ العودة إلى الصحراء معك. إنك لا تعيشين في هذا البلد إلا في تعجّل دائم، وتظنّين مع ذلك أن خطواتك العاصفة جميلة، من الصباح حتى المساء، وعبر المدن والضواحي. أستاذة في الإشارات والتلميحات الصغيرة أنتِ، وإلى أيّ شيء أحتاج أكثر من احتياجي إلى الإشارات الصغيرة؟ أما الآن، فليس لديك وقت حتى لأصغر الإشارات. لم تعد هناك رسائل خلف زجاج السيارة الأمامي، وتحت ممسحة الأقدام، وفي جيب التنّورة؛ لا أوراق في الأحذية بعد الآن، لم أشعر بذلك إلا في الشارع، بعد انصرافي عنك، ولا تلميحات – كلما كانت أكثر غموضاً، شغلتني وقتاً أطول. «أنت مشتهاة للغاية!» هكذا قلتُ لكِ. وأنتِ: «مِن مَن؟». أنا: «مني». في الصحراء كنت طليقة اليدين، أما في الآونة الأخيرة فقد كنت محمّلة بالكثير، أينما سرت ووقفت، وحيثما كنت تجرّين قدمك جرّاً، كنتِ آنذاك مختلفةً تماماً عمّا كُنتِه في إفريقيا، وكبدوية. أيتها النساء، أين أنتن؟ آه! بدلاً من ذلك لم يعد هناك سوى العروض، العروض الرخيصة. آه! لكن أيّ أملٍ ما زالت تمنحني إياه أردافكن العابرة، أيّ بهجة! لماذا كنت أنطلق إليكنّ كلّ يوم؟ حتى أتخلّص من حماقتي الذكورية، لأقترب من أسراركن. والآن؟ أضحيت سجيناً لتفاهةٍ محزنة جدّاً. سأداعب الطفل داخلك، سأهزّه، سأوقظه، سأضربه، يا امرأة الشيطان. بجانبنا دودة علق راحت تتضخّم أثناء ممارستنا الحب. وفي حين أنك كنت تمدّين يدكِ إلى ما بين ساقي العشيق السابق، أرسلتِ إليّ عبر الكتف نظرتك الأولى.

تريدينني ميتاً، أيتها المرأة، لكي تقيمي الحداد عليّ. عنقي الملتوي، لم يكن السبب في ذلك حادثة، لقد سقط رأسي من تلقاء نفسه إلى الخلف، بعنفوان حجرٍ ثقيل. كنتُ أبحثُ عنك بالنظر، وحتى إذا لم تَظهري، فسأظل أبحث عنكِ بالنظر دائماً. أيتها القاهرة الرائعة. انفجري! وغداً عيد العنصرة». (وهنا توجّه الخادم مباشرة إلى سيده دون جوان، وغيّر نبرة كلامه:) «هه، قاطعني أخيراً! لا أستطيع التحدّث بوضوح إلا إذا قاطعني أحد. وأنت، أنت تصمت عامداً حتى أظلّ في تيهي». (ثم وهو يهبط من السيارة:) «آه، إنني لا أستطيع التعبير عن شيء إلا من خلال فوضى الكلام وعبر الطرق الملتوية. آه، لو كنت شاعراً! آه، أليس عظيماً أنني هنا، وفي اللحظة نفسها تمرّ آلاف الأشياء المختلفة في رأسي؟ آه، لم ألحظ أنها لا ترتدي شيئاً مطلقاً إلا عندما نضت عنها ملابسها. رغم أنها خلعت ملابسها أمامي، فلم أرَ أيّ ثيابٍ تسقط. جعلها ذلك أكثر عرياً. من يستطيع أن يفهم، فليفهم!».

وفي ما بعد، حين كنا جالسين نحن الثلاثة حول سفرة المساء، كانت مَضيَفتي قد حوصرت فجأة بالنساء. عندما أسترجع الأحداث بعد ذلك بأسبوع، وأفكر في تلك الساعة في إحدى أمسيات مايو قبل حلول الظلام، فإنني أسمع صرخات حربية تصمّ الآذان، صرخات لم تصدر في الحقيقة. مثلما تَظهر لي النساء الستّ أو السبع كلّهنّ مرتديات ثياباً بيضاء. على الفور –أو ربما تتلاءم مع مجيئه الكلمةُ القديمة: «على الأثَر»– كنّ يقفن أمام الأسوار، من مختلف الجهات، كأن إحداهن هبطت بالمظلة، والثانية أتت على ظهر جواد، وكأن الثالثة نزلت في الحال مِن على ظهر فيل، وهكذا. وجّهت النساء نظراتٍ متجهّمة إليّ، فقد كنت أول من ظهر لهنّ عبر الكوّة في سور الحديقة، ووجدت نفسي أفكر في تلك الغابة من أسنّة الرماح التي رأيتها تعبر ذات مرة فوق أسوار «بور رويال» التي كانت بالطبع -هذا ما رأيته بعد ذلك عند البوابة- تنتمي إلى مجموعة من رياضيين شبّان كانوا في طريقهم إلى ملعب رمي الرماح. عندما رأيت المحاصرات الجميلات، خطر على بالي أننا في «فور رويال» (الحصن

الملكي)، بدلاً من «بور رويال» (الميناء الملكي). كنّ جميلاتٍ بحقّ؛ لم يبالغ دون جوان عندما قال: «جمال لا يوصف». حتى أنا –وأنا أعتبر نفسي في ما يتعلّق بالنساء قد هُزمت بالضربة القاضية منذ زمن طويل– فكرت في الحال، ورغم كل الملامح المتجهّمة: «أدخِلوني إلى الحلبة ثانية!» مع أولئك النسوة سيعيش المرء خبرةً جديدة – الربّ يعلم ما هي. ومرة أخرى في ذلك اليوم، تلاعبت السماء بعيني: آه، كل أولئك النسوة تحت السماء. يبدو، حسب هيئتهن، أنهن يفكّرن في ارتكاب الشر. أدركني التأثر لمرآهن. إذا اجتمعن معاً، فسيحدث شيء، غير أن هؤلاء النساء لم يجتمعن معاً. ولا واحدة اهتمّت حتى بالأخرى. لم يكن ثمة وجود للأخريات. ما كنّ لينتبهن حتى لو دهسن امرأة واقفة بجوارهن. كل امرأة كانت تحاصر «بور رويال» لنفسها فحسب. لا شك أن كل واحدة من أولئك «الجميلات جمالاً لا يوصف» كانت حاضرة وحدها، دون الأخريات.

ما يمكنني وصفه كان هذا الشيء الجميل أو ذلك في محيط أولئك النسوة. في الغابات على التلال المحيطة بـ«بور رويال» أزهرت لتوّها أشجار الكستناء، وكانت الزهور الصفراء في أقماعها تتساقط طولياً بين أشجار السنديان الداكنة، كأنها موجاتٌ وتيجان من الزَّبَد ترتطم بلا صوت في كل مكان حول الأطلال، من ذلك التلاطم الصامت بزغ أولاً، خلف وادي «إيل دو فرانس»، السقف الأحمر الناصع لمخازن دير «بور رويال» قديماً، سقف من القرميد، لم أقابل بعد أجمل منه ولا أكثر غرابة، وكأنه جزء من كوكب لم يُكتشف تماماً، كوكب رآه المرء في حلم، وطيور السنونو فوقه، التي كانت تغوص في آخر أشعة الشمس، استعادت سرعتها الفائقة وكأن الضوء يدفعها دفعاً. وبالطبع، كانت بذور أشجار الحور ترتع بالأسفل في وادي «رودن» من جديد، وكأنها تقدّم العرض الأخير، وقد طارت بشكل أفقي من مكامنها في الأخاديد والفجوات في الطرق والمروج والحقول، وتداخلت، بمرور الوقت، بعضها في بعض، مكوّنةً كراتٍ هشّة وذيولاً، وباندهاش تلتصق في النهاية كالصوف بأقدام النساء، وفي

الوقت نفسه تواصِلُ بعض تلك البذور طيرانها انفرادياً، مداعبةً آذان النساء وأنوفهن، فتظهر عليهن بوادر تقلّصات في الوجه، وبوادر عطس أيضاً، دون أن يجعلهن ذلك يخفّفن من نظراتهن المتجهمة. تصفيق في هواء المساء في مايو، وكأنه صادر عن نعال أطفال يركضون، لكنهم بالطبع لم يظهروا. الأسلحة في أيدي المُحاصِرات تبدو في تلك الأثناء كأنها هدايا.

«آن الأوان!»، سمعت دون جوان يقول ذلك خلفي. علت تنهيدة ثلاثية – لقد تنهّد الخادم أيضاً، وأنا، نعم، وأنا أيضاً. عندما ظهر دون جوان في الكوة بدلاً مني، تعمّقت الجهامة في عيون النساء الستّ أو السبع، لكنها كانت جهامة أخرى. الملامح المتقلّصة التي ظهرت على الوجوه: ألا ترجع بالأحرى إلى دغدغة ألياف بذور الحور؟ بعد ذلك بأسبوع لم أعد أراهنّ، بالمناسبة، كرقم. إذا كان السؤال هو: هل هنّ رقم أم كتابة؟، فسأردّ: كتابة. ساهم في ذلك أيضاً أن دون جوان كان يحرّك شفتيه مثلما يفعل شخصٌ يتهجّى الحروف. ورغم أن «الأوان آن»، فقد كان متمهّلاً. بدت الحيوانات في حديقتي، القطط الغريبة والكلب الهارب والعنزة، وكأنها تريد إعاقته عن المرور من البوابة ليخرج إلى الفضاء الرحب. ركض أحد الحيوانات بين ساقيه وقد استولى عليه الذعر الشديد، في حين راح آخر يقطع عليه الطريق، ومدَّ ثالث، بنيّة واضحة، قدمه في طريق دون جوان. حتى الخادم ساهم في الفوضى، وهو الذي كان يهيّئ نفسه للقيام بدوره –المتوهَّم ربما- وكأنه صبيّ يتعلّم مهنة، وذلك بأن أخذ صوته يعلو بدندنةٍ مستمرّة أمام السور، مخطئاً بين الحين والآخر في النغمة. أما دون جوان، وكما حكيت، فقد كان يشعر وسط الذعر بأنه قد عاد إلى أجوائه المألوفة. تلفّت حوله بكل هدوء، بهدوء حيوان مفترس.

خلال الأيام السبعة عندي في الحديقة، ظهر «دون جوانات» آخرون، في البرنامج الليلي في التلفزيون، وفي الأوبرا، وفي المسرح، وكذلك في ما يسمى بالواقع الأصلي، من

لحم ودم. غير أنني علمت عبرَ ما حكاه لي «دون جواني» عن نفسه: كانوا كلّهم «دون جوانات» زائفين – حتى «دون جوان» موليير؛ وحتى «دون جوان» موتسارت.

إنني أشهد: دون جوان شخص آخر. رأيته شخصاً وفيّاً – الوفاء مجسّداً. كان يمثّل لي شيئاً آخر غير مجرد اللطف والبشاشة – كان يقظ الحواس. وإذا كنت قابلت في حياتي شخصاً أبوياً، فهو: المرء يصغي إليه، ويصدّقه. مع أنه ظلَّ طوال الأيام السبعة بعيداً عني، الأمر الذي يوافق طبيعتي، ويناسبني أيضاً، أنا الذي لم أعد، منذ وقت طويل، أفعل شيئاً سوى الحلم بالآخرين، والحلم بحكايات الآخرين التي لا أظهر فيها. خلال وقتنا المشترك لم يتطلع أبداً إلى وجهي تطلعاً حقيقياً، لا سيما أثناء حكيه، كان يتعدّاني بنظره، أو ينظر من خلالي. كلا: ذات مرّة تطلّع إليّ حقّاً، وأيّ تطلُّع! حدث ذلك عندما سقط من يده شيء كالتعويذة، وكان على وشك أن يتهشّم، وفلتَ منه اسم –لم يكن اسم امرأة–، كما تطلع إليّ أيضاً عندما التقطتُ التعويذة، أو أياً كان هذا الشيء، في اللحظة الأخيرة.

قبل أن تنفتح بوابة الحديقة، رأيته يضحك ويلوّح لي لكي أرجع. وفي الخارج أيضا رأيتُ شخصاً يضحك ويلوّح، رجلاً طلع من الغابات سائراً في اتجاه النساء. وعبر الكتف قال لي دون جوان إن هذا الرجل شقيقُ إحدى النساء، النرويجية أو الهولندية أو امرأة ثالثة، وإن الشقيق، وعلى خلاف المرأة، قد تصادق معه قبل مغادرته البلد؛ وهل كان من الممكن أن يحدث شيء آخر؟ ما حدث بعد ذلك، لا يستطيع أحد أن يحكيه حتى النهاية، لا دون جوان نفسه، ولا أنا، ولا أيّ شخص آخر. حكاية دون جوان لا يمكن أن تكون لها نهاية؛ وهذه، حقاً وصدقاً، هي حكاية دون جوان النهائية والحقيقية.

شكر خاص

للشاعر المغربي حسن نجمي، الذي تحمّل عناء المراجعة اللغوية للترجمة كلّها ومقارنتها بالترجمة الفرنسية. وبناء على اقتراحاته المستندة إلى الترجمة الفرنسية اكتشفت بعض الأخطاء التي وقعت فيها، فأخذت بها، غير أنني رفضت اقتراحات

رأيت أنها تتمسك بحرفية النص (وربما تتيح اللغة الفرنسية هذا)، كما لم آخذ بتأويلات أخرى وجدت فيها بعض الشطط. على كلٍّ، فإن جملة هاندكه المرهقة، المحتشدة بالتفاصيل، تضع المترجم أمام مشكلات عديدة، آمل أن أكون قد استطعت تجاوزها بمساعدة الصديق الشاعر.

كما أتوجّه بالشكر إلى الصديق المترجم أحمد فاروق، على الملاحظات العديدة القيّمة التي أبداها.

وغنيٌّ عن القول إنني أتحمّل وحدي المسؤولية كاملة عن الأخطاء التي قد تكون تسلّلت إلى هذه الترجمة.

سمير جريس

بيتر هاندكه (6/12/1942):

من أهم الكتّاب النمساويين بعد الحرب العالمية الثانية وأغزرهم إنتاجاً وأكثرهم إثارةً للجدل. يشمل عمله القصة والرواية والمسرح والمقالات، كما ترجم عدة أعمال عن الإنكليزية والفرنسية واليونانية. من أشهر أعماله: مسرحية «سبّ الجمهور»، ومسرحية «كاسبر»، و«الرسالة القصيرة للوداع الطويل». شارك في كتابة سيناريو عدّة أفلام للمخرج الألماني فيم فيندرز، من أشهرها: «السماء فوق برلين»، والفيلم المأخوذ عن روايته «خوف حارس المرمى عند ضربة الجزاء».

حصل هاندكه على عدد كبير من الجوائز، أهمها جائزة بوشنر في عام 1973، غير أنه أعادها في عام 1999 لأسباب سياسية. حصل هاندكه أيضاً في عام 1987 على جائزة الدولة النمساوية الكبرى. وفي عام 2019 منحته الأكاديمية السويدية جائزة نوبل في الآداب «لأعماله المؤثرة التي تميّزها براعة لغوية تستكشف محيط التجربة الإنسانية وفرادتها».

سمير جريس:

درس الألمانية وآدابها في القاهرة وماينتس بألمانيا، وترجم عن الألمانية نحو 25 عملاً من الأعمال الأدبية الحديثة، منها: «عازفة البيانو» لإلفريده يلينك، الحائزة على جائزة نوبل عام 2004، و«الوعد» لفريدريش دورنمات، و«حياة» لدافيد فاغنر، و«العاصمة» لروبرت ميناسه.

صدرت له لدى دارَيْ «سرد للنشر» و«ممدوح عدوان للنشر والتوزيع» ترجمة كتاب توماس برنهارد «صداقة مع ابن شقيق فيتغنشتاين»، ومسرحية «مدرسة المستبدّين» للكاتب إريش كستنر، والمجموعة القصصية «سنّ الأسد» لفولفغانغ بورشرت.

حصل على جوائز عربية وألمانية تقديراً لترجماته.

t.me/t_pdf
مكتبة